أيام النوافذ الزرقاء

عادل عصمت

رواية

t.me/qurssan

في ذلك الصمت، رأيت شفتيها تتحركان. طوت القميص ووضعته في حجرها ونظرت إلى الضوء خارج النافذة، ثم عادت إلى الرتق وتحركت شفتاها بكلمات مبهمة. تحت كراسي السفرة يختلط الضوء بالظـــلال، وينعكس على البلاط، ويصل الانعكاس إلى مرآة البوفيه. ثبتّ عيني على نقطة التقائه مع البلاط، فترة طويلة، حتى شعرت بأطياف تتحرك. رفعت عيني؛ رأيت كائنات شفافة تعبر النافذة إلى السماء.

t.me/qurssan

أيام النوافذ الزرقاء

دار شرقيات للنشر والتوزيع

أيام النوافذ الزرقاء

رواية

عادل عصمت

الطبعة الأولى ٢٠٠٩

© حقوق النشر محفوظة لدار شرقيات ٢٠٠٩

دار شرقيات للنشر والتوزيع

٥ ش محمد صدقي، هدى شعراوي.

الرقم البريدي ١١١١١

باب اللوق، القاهرة

ت: ٢٣٩،٢٩١٣، ٢٣٩٣١٥٤٨

sharqiyat2010 @yahoo.com

الغلاف: إهداء من الفنان رؤوف جمعة

عصمت، عادل

أيام النوافذ الزرقاء : رواية / عادل عصمت – ط ١. – القاهرة: دار شرقيات للنشر والتوزيع، ٢٠٠٩.

١٠٢ ص ؛ ٢٠X١٤ سم.

رقم الإيداع٢٠٣٠٩ / ٢٠٠٩ تدمك-ISBN 978-977-283-324-3

روايات – العنوان

ديوى ٨١٣

t.me/qurssan

عادل عصمت

أيام النوافذ الزرقاء

رواية

دار شرقيات للنشر والتوزيع

t.me/qurssan

الآن، هنا، في تلك المدينة الخليجية، يمر اليوم وراء الآخر، أخمن تقريبا ملامح ما سيحدث غدا، وفي الأسبوع القادم والشهر القادم، وأحيانا يخيل إليّ أنني أرى طريقة موتي؛ سوف أرقد على الكنبة في بيت جدتي، هناك، في المدينة التي نشأت وتربيت فيها وسط دلتا النيل، وأغمض عينيّ وأترك الضوء ينسحب.

أفكر كثيرا في تلك المدينة البعيدة. هناك، حدث شيء ما، عطل شعوري بأن الحياة تسير إلى الأمام؛ عطل مجيء المستقبل. بحثت، طويلا في التفاصيل الصغيرة، في رائحة الأصباح، في تمتمات جدتي، في الخوف من العَمَى الذي خيم على صباي، في الأغاني التي كانت تعوم في الشارع، في الحكايات والأساطير، في الموت والحب والغيرة. حاولت استعادة وجوه بشر أعرف أنني لن أراهم ثانية. لم يكن لكل ذلك جدوى.

لم أستطع العثور على ذلك الذي أعاق حياتي عن الجريان، وجعل مني شخصا لا ينتظره شيء. ترك لي مستقبلا فارغا كالعدم. في ذلك البيت عشت أياما تبدو، الآن، حية لا ينالها التبدل. تبدو هكذا على البعد، لكن وقت عيشها، لم أكن أعرف أنها ستصبح نقطا

صغيرة من الفرح كلما عرفت أنه لا مستقبل لي. توقف شيء في الحياة، لم يعد لي غير أن أكرر ما فعلته أمس. ربما الحياة هي أن نكرر الأيام.

تتراءى لي جدتي أحيانا وقد عادت حية. بعثتها أحلام لم أكن أتوقع أن تكون بهذه الكثافة، في الفترة التي ظننت أن كل شيء أخذ صورته النهائية. أرسلت إلى خالي "محمود"، أسأله إن كان يحتفظ بصورة لها. يستغرق الرد وقتا طويلا، فهو لم يساير تغير الزمن ولا يستعمل الإيميل ولا الموبايل، رغم أننا تخطينا الأعوام الأولى من قرن جديد. قربتني منه الرسائل الورقية وسألني في خطابه الأخير:

"ماذا يعني قرن جديد؟ أنت تمشي وراء الموضات، إنها فواصل زمنية يخترعها الناس. البيت أصبح غير صالح للسكن، صحيح لم يعد هناك فئران لكن البيت أصبح قديما جدا، كأنه قطعة من حياة أخرى. الحياة تزداد صخبا في المدينة".

"لو عدت إلى المدينة لن تعرفها. كل يوم يهدمون بيتا، ويبنون أبراجا، وإذا كنت قد رحلت عنها، فإنها ترحل عني وأنا فيها."

الرسائل الورقية بها حس شخصي زاد وضوحا بعد استعمال البريد الإلكتروني. يبدو الشخص الآخر أكثر قربا، يمكن تخمين شيء عن أحواله. انبعاج الخط وتعرجه أو دقته وجماله يعني حضور الشخص البعيد أمامك. لخط اليد حضور مثل بصمة الصوت يساعد على استحضار المناخ الذي يحيط بالناس. كانت

t.me/qurssan

رسائل خالي "محمود" لها هذا الحس فقد غدوت قادرا على تخيلـه بوضوح، يغلق الباب الخشبي للجنينة في الصباح، ويسرع قاطعـا شارع سعيد إلى مدرسة الصنايع، هناك يمشي في تلك الأجواء التي مشيت فيها ذات يوم، شاردا كما كان، محتفظا حتى الآن بطريقـة لبس الملابس على طريقة السنوات الأولى من سـبعينيات القـرن الماضي. لقد تحجر عند زمن معين، ولم يستطع أن يفارقه.

خطابه الأخير أكد تخميني، فلم يعثر لجدتي على أي صورة في البيت، حتى البطاقة الشخصية التي كانت تستلم بها معاش جدي أول كل شهر، لم يعثر عليها في الأوراق القديمـة، ربمـا أخـذتها أختها "منيرة" قبل موتها.

لم تعد لجدتي غير الصورة الذهنية التي يكونها كل منا لهـا. لم تعد لها إلا تلك الصورة الشخصية الخاصة بكل فرد على حـدة. كم تتعدد وتنقسم الأرواح عندما تغادر عالمنا، ويكـون لهـا هـذا الوجود الحيوي الحر في أن تظهر كما تشاء. إنها هناك تهب فـي أحلام كل منا وفي تداعياته كتقطير حي لزمن قديم. لم يكن هنـاك مفر من الاعتناء بحقيقتها الخاصة في خواطري الشخصية، لم يتبق غير أن يحاول المرء أن يعثر على روحها الضائعة، التي أصبحت جزءا من روح كل منا: خالي "نبيل" في ألمانيا و"محمد" و"أفـراح" في كندا وأنا هنا في إمارة الشارقة وخالي "محمود" هناك في طنطا. لكن "سهام" بنت خالتي "سميرة" لن تستطيع أبدا أن تـشكل صـورة حقيقية للجدة، لم يكن لديها غير الحكايات فقد ولدت بعد موتها ولـم تر صورة شخصية لها.

كان الخطاب الأخير لخالي "محمود" ثقيلا حتى أنني لم أتحمل قراءته مرة ثانية، وقمت أرتجف في الفجر. كانت جدتي تقف عند باب الجنينة وتقول: "إلحق... طائر أبيض ينقر زجاج النافذة، قم وهشه بعيدا". في اليوم التالي استعدت بدقة تفاصيل ذلك اليوم البعيد الذي قامت فيه مرعوبة تبحث عن المصحف تحت المخدة، وهي تشعر بتلك القشعريرة والبرودة التي تركها طائر أبيض حام في فضاء الصالة، بعد أن كسر زجاج النافذة المطلي باللون الأزرق، رفرف بجناحيه، ثم حط على شظايا الزجاج وراح يلتقطها كما يلتقط حبوب القمح. لم يكن الجو باردا، لكنها شعرت بتلك البرودة التي جاء بها الطائر. نور الصباح الخافت كان قد انتشر في الشرفة عندما فتحتها. أطلّتْ على الجنينة الصغيرة ووقفت لحظات على درجات السلم، تخطت الممشى الذي يقود إلى الباب الخشبي، وفتحته كأنها تبحث عن أثر الطائر. نظرت إلى شرفة بيت الباشا وإلى الفضاء. سحب شفافة باهتة الزرقة تسيل في السماء. تطلعَت إلى عمق الشارع. الأبواب مغلقة والنوافذ والشرفات غارقة في صمت الصباح ومن بعيد يأتي صوت حوافر خيول عربات الخبز في شارع الحلو.

أغلقت الباب الخشبي، ووقفت تائهة في ممشى الجنينة الصغيرة. حطت عيناها على صف من قصاري الزرع مركونة تحت نافذة غرفة الجلوس. صعدت سلالم الشرفة وعدلت كراسي الخيزران، واستدارت إلى الجنينة، كأنها تنتظر أن ترى ذلك الطائر مرة أخرى. دخلت البيت خائفة أن ترى زجاج النافذة القبلية مكسرا ودم الطائر على الكنبة. فتحت باب غرفة الجلوس. ضوء خافت

t.me/qurssan

يتسلل من شقوق النافذة الغربية يكشف تلك السكينة الرتيبة التي تفترش الكراسي. المكتبة في مكانها بجوار باب الشرفة ممتدة بطول الحائط. كل الأشياء ساكنة كما كانت دائما. قضت بعض الوقت تدور في البيت يقلقها تحطم زجاج النافذة، وصوت الشظايا تحتك بمنقار الطائر. كان لون ريشه الناصع البياض غامضا، مثيرا للغرابة ومقلقا على نحو لم تجربه منذ سفر "نبيل"، وصوته خفيض مزمجر ومصر يصارع ويلتقط شظايا الزجاج الأزرق من على البلاط.

قالت لي بعد ذلك إن هذا الطائر هو ملك الموت الذي أخذ روح خالي "فؤاد"، ولم أستطع أن أفهم كيف يجيء ملك الموت إلى زيارة البيت، ثم ينتظر عدة سنوات ليأخذ روح خالي "فؤاد" أثناء عملية عسكرية في شرق القناة في إبريل عام ١٩٧٠.

جاءت "أم وداد" في ميعادها في السابعة، تحمل "كسرولة" الفول، ومعها رائحة الصباح المعتاد. طلبت منها جدتي أن تعد سندوتشات الأولاد لأنها متعبة هذا الصباح. جلست على الكنبة. الضوء الخافت الأزرق الذي ينتشر في البيت يقلقها، من يوم أن دهنوا النوافذ المطلة على الشارع بلون أزرق خوفا من الغارات، وهي تشعر بكآبة لا تقوى عليها، هذا النور الداكن خاصة في الصباح والمساء، يترك حسا كأنها تعيش في جو الأحلام المضبب، يثير أعصابها أحيانا حتى أنها كانت تطلب منا:

"افتحوا الشبابيك، روحي هتطلع!!"

* * *

أرى جدتي قادمة من طرقة المطبخ. في يدها النظارة. تنادي علي: "هات لي الجريدة". تستعمل النظارة في أمرين: رتق الملابس وقراءة الجريدة. تضعها غالبا على البوفيه بجوار الراديو القديم المغطى بمفرش أبيض مطرز الحواف. كثيرا ما كانت تقف حائرة وتسألني: "دوّر لي على النظارة." أحببت رحلة البحث عن النظارة؛ أبدأ من غرفة نومها، أبحث على الكوميدونو بجوار سريرها، أو فوق التليفزيون أو في المطبخ، وعندما أعود بها متهللا، أعرف مسبقا ما ستقوله، ففي كل مرة تؤكد أنها وضعتها على البوفيه، ولا تعرف ذلك الشيطان الذي يخفيها.

كنت أفضل جلسات رتق الملابس، بسبب صباح شتوي، أذكره بوضوح، كأنما لم تطله تبدلات الذاكرة. في ذلك الصباح اتخذت جدتي مكانها على الكنبة بجوار النافذة، منشغلة في رتق عدد من القمصان والجوارب. ضوء الشمس يبرق خاليا من الشوائب، خفيفا، غنيا بلمعان نقي، ينعكس على سياج الشباك، وعلى وجهها ورقبتها، وشعرها الداكن الملفوف على شكل كعكة، ويلمع منه خط بارق حول وجهها، عندما ترفع يدها بالإبرة لتدخل فيها طرف الخيط، بعد أن بللته بشفتيها. كانت ساكنة مستغرقة في تضييق عروة قميص أبيض، ومن غرفة خالتي "سميرة" لا يصدر أي صوت، وحتى الشارع بدا بعيدا، لم أسمع إلا صوت عصافير في الجنينة، وصوتا بعيدا لا يكاد يسمع:

قلبي سعيد وياك يا حبيبي

t.me/qurssan

قلبي سعيد...

في ذلك الصمت، رأيت شفتيها تتحركان. طوت القميص ووضعته في حجرها ونظرت إلى الضوء خارج النافذة، ثم عادت إلى الرتق وتحركت شفتاها بكلمات مبهمة. تحت كراسي السفرة يختلط الضوء بالظلال، وينعكس على البلاط، ويصل الانعكاس إلى مرآة البوفيه. ثبتّ عيني على نقطة التقائه مع البلاط، فترة طويلة، حتى شعرت بأطياف تتحرك. رفعت عيني؛ رأيت كائنات شفافة تعبر النافذة إلى السماء.

انتبهت إلى صوت جدتي:

"تتركني وحدي، يا "يوسف" في الهم وتمشي؟".

الصوت خفيض، به ما يدل على أن من يُوجّه إليه الكلام موجود هنا. كانت تلك أول مرة أسمع اسم جدي وأشعر به كشخص حي قريب، وليس مجرد صورة معلقة في غرفة الجلوس. انتبَهت إليّ. تجهم وجهها، وقالت بجدية خالية من الود الذي اعتدته منها:

"أنت هنا ....؟!"

"اجري، العب في الشارع..."

قلت وقد شعرت بذنب غامض لأنني اطّلعت على سرها:

"العيال وقعوا لي النظارة في التراب"

يومها، لو لم تبتسم لانخرطت في البكاء.

يسكن ذلك الصباح منطقة خالية من الزمن. كلما حاولت وضعه في خريطة الأحداث الخاصة ببيت جدتي، يتأبى على

التصنيف، وينزاح ليعطي الانطباع بأنه حدث خـارج الـزمن. لا أستطيع أن أصنفه في أحداث السنوات المبكرة، قبل موت أمي التي أتذكرها في مرضها الأخير، في بيتنا في شارع صدقي، تستند على الباب مرتدية روبا منزليا، وأنفاسها تسمع من كل غـرف الـشقة، مختلفة عن صورتها الباسمة التي تحتفظ بها خالتي "سـميرة" فـي محفظتها، وتشبه إحدى الممثلات، بشعرها المتموج النـازل علـى كتفها. ولا أستطيع أيضا أن أضعه في تلك السنوات المرحة، التـي يحكون عنها، قبل سفر خالي "نبيل" ليحصل على الـدكتوراه فـي الهندسة من ألمانيا. لكني متأكد من أن ذلـك الـصباح، لا يخـص السنوات التي تلت موت خالي "فؤاد" في الحرب.

كان صباحا شتويا، فنسبته إلى إجازة نصف العام، أو ربمـا لإحدى الأجازات المتقطعة بسبب مرض عيني. لكني لم أجد تفسيرا لوجود أغنية "قلبي سعيد" في ذلك الصباح، فلم تكن "المهاجرة" قـد سكنت الشارع بعد، ونشرت صوت وردة الجزائرية وأغانيها فـي كل مكان.

هذا الصباح ظل لغزا، قام عليه حبي لجلسات رتق الملابس، وقراءة الجريدة، وشكّل نواة شغفي لمعرفة ما يدور في ذهن جدتي، أثناء شرودها، الذي كان يصفو أحيانا، حتى يتحول إلـى سـكون مهيب. لم أكن قادرا على سؤالها، أن تحكي لي، ما يدور في ذهنها، أثناء رتق الملابس، لأنها ستدعي أنهـا مـشغولة، لكنـي أنتهـز الفرصة، أثناء قراءة الجريدة، وأندس بجانبها، أسألها أن تحكي لـي ما تقرأ. كانت الأحداث لها روعة عندما تحكيها جدتي، حتـى لـو كانت أمورا لا أستطيع تكوين صور واضحة لها، مثل وقف إطلاق

t.me/qurssan

النار، ومبادرة روجرز، وزيارة عبد الناصر لروسيا. أحيانا تكون متعبة فتقول: "أنت كبرت اقرأ لنفسك." أو تدعي أن الجرائد لم يعد بها شيء يستحق الاهتمام. أمسك الجريدة وأفتح صفحة "أخبار المجتمع" التي كانت تطيل القراءة فيها، محاولا العثور على تلك الأحداث التي تتطلب ذلك الشرود المهيب الذي يغمرها أثناء القراءة ورتق الملابس.

غير موت خالي "فؤاد" من كل ذلك. لم يعد الأمر ممتعا، بل مرهقا، أن أشاهد جدتي تجلس لرتق الملابس. كان يوما غريبا، كل شيء فيه يسير بشكل عادي وفجأة يحدث أمر يلقى بعيدا بما تظن أنه الحياة. كنا قد أقمنا في بيت جدتي بعد سفر أبي ليعمل في مدارس مطروح. كان يوم جمعة. صعدت سور الجنينة أقطف الزهور البنفسجية التي تشبه الكؤوس وتطل من بين الأوراق الكثيفة والفروع الحلزونية لكي أزرعها معتقدا أنه يمكن للزهور أن تُنبت زهورا، دون أن تمر بمراحل نمو النبات، كما ادعى خالي "محمود". استخدمت السلم الخشبي في الصعود إلى السور. قطفت عددا من الزهور، ثم سمعت الصرخة. أمسكت بالدرجة العليا للسلم. أتت الصرخات مرة أخرى من جهة الشرفة. تحرك طيف خالتي "سميرة" خلف زجاج باب غرفة الجلوس. استبعدت مخاوفي، التي غدت تافهة أمام جدية الصرخات. كنت على يقين من أن هذا الصراخ لا يخص اكتشافهم مكاني وخوفهم أن أقع أو أكسر النظارة. لم يظهر أحد في الشرفة. نزلت بسرعة، ووقفت منتظرا، أن تظهر جدتي. ندت صرخة أخرى، قصيرة ضعيفة كأنها بقايا الصرخات الأولى. وصوت مبحوح:

"يا خويا."

صمت البيت مرة أخرى. تركت الزهور في القصرية، وتوجهت إلى الداخل. كانت جدتي محلولة الشعر، وجهها مستدير ومنتفخ، تنظر حولها، عيونها مفتوحة واسعة تبرق. خالي "محمود" ارتدى فردة شراب والأخرى في يده، وجلس ساهما على كنبة الصالة، وشعره مشعث. صمت خشن يغطي كل شيء. تضرب خالتي "سميرة" فخذيها، وتحرك جذعها للأمام والخلف، والدموع تملأ عينيها، ولا تنزل على خدها.

كان أبي قد عاد فجأة من مطروح، وهاهو، الآن، يجلس على مقعد في الصالة، يدخن. لا أعرف متى جاء، وكيف قطع تلك المسافة البعيدة في غمضة عين. أرى كل شيء في ضوء رصاصي، كأن زجاج النظارة مضبب، وأشعر بأن البيت هش، تكفي حركة واحدة ليتلاشى. فضاء الصالة مشدود كملاءة بيضاء، مفرودة عن آخرها، أنتظر صوت تمزقها. انسحب النور من عيني وجاءت لحظة العمى التي طالما حذروني منها. اختفي البيت الذي كنت أعرفه، واستقر مكانه بيت هش من بيوت الأحلام أو الحكايات. بعد ذلك عندما حاولت أن أستعيد تلك اللحظة، لم أجد غير تفاصيل متفرقة، مثل صوت بائع الليمون الذي كان يعبر الشارع، وصوت "أم نوسة" المبحوح تنادي بنتها، ولون الضوء في النافذة القبلية، وحس غامض بالصمت، كأن تلك الأحداث الصعبة تحيط نفسها بخلاء، كأن الحدث الأصلي يفقد شحنته العاطفية ويوزعها على تفاصيل هامشية رافقت الحدث. الانفعالات التي لا نستطيع تحملها لا تستقر في ذاكرتنا بل ترحل إلى مكان خفي

t.me/qurssan

يصعب الوصول إليه. سمعت بكاء مفاجئا، جاء من المطبخ، وتبينت فيه صوت أخي "محمد"، ربما، كنت أنتظر هذا الصوت حتى يستعيد ما أرى توازنه ويتحول مرة أخرى إلى واقع، بكيت بنفس الصوت، كأننا جرار صغيرة تتبادل النباح على البعد.

في العصر، توقفت سيارة عسكرية أمام البيت. فتحوا الباب الحديد للمدخل الرئيسي، وأدخلوا صندوقا كبيرا، كأن عملاقا يرقد فيه. في المساء فتحوا باب الجنينة الخشبي. وُضعت كراسي ببطانة حمراء في الشرفة وفي غرفة الجلوس. كان أبي يرتدي البدلة الرمادية وربطة العنق السوداء، وشاربه المشذب على شكل خط رفيع على حافة شفته العليا متساو بطريقة أنيقة. حزنه منظم ككراس التحضير. كنت أشاهد رعشة في يده وهو يشعل السيجارة البلومونت، ويدخنها شاردا.

جاءت الخالة "منيرة" من شارع الفاتح. توقف الحنطور أمام البيت. لم يحط بها الجو الاحتفالي المعتاد. كان الرجال يعبرون إلى غرفة الجلوس والنساء يجلسن في الصالة بملابسهن السوداء. جاء الناس من كل الدنيا للعزاء. أقامت الخالة "منيرة" في البيت عدة أيام، تساند أختها، كانت تنام معها في غرفتها. لم يسمعها أحد تحكي حكاياتها عن تاريخ جدودها، أصبحت ساهمة، تربت على كتف جدتي، وتقرأ في مصحف صغير، بعد أن ترتدي نظارة إطارها مذهب ولها سلسلة تتدلى وتلمس صدرها، تغلق المصحف وتنظر تجاهنا لكنها تعود إلى القراءة.

قالت:

"سوف أبقى معك".

قالت جدتي:

"لا يصح بيتك أولى بك، أنت عملت أكثر من الواجب".

غضبت الخالة "منيرة" وقالت بطريقتها الآمرة:

"واجب؟!"

وقد احمر وجهها من الغضب:

"واجب؟ "فؤاد" ابني مثلما هو ابنك. واجب؟ أنا أختك الكبيرة".

ظلت تكرر كلمة "واجب" كأن بها إهانة بعيدة، غائرة غير مرئية. كانت جدتي متعبة فلم تستطع أن تتبين في قلب أحزانها أن أختها لم تتجب. حط الكلام على الجرح دون قصد، في منطقة لا تستطيع أن تتسامح فيها الخالة "منيرة". بكت في هذا اليوم وغادرت البيت، وقالت جدتي: "لم أعد أعرف شيئا. لساني يقول أشياء لا أقصدها".

في أبريل من ذلك العام عبر "فؤاد" مع كتيبته قناة السويس بالليل. كانت ليلة داكنة الظلام. هاجمت الكتيبة القوات الإسرائيلية داخل مواقعها. كانت موقعة كبيرة، كما حكى لي خالي "محمود" بعد ذلك. كاد جثمان "فؤاد" يُفقد لكن زملاءه استطاعوا أن يحملوه معهم أثناء العودة. هدأت أحزان جدتي قليلا عندما عادت الخالة "منيرة" وجلست على الكنبة وحدثتها أننا كان يمكن أن نفقد "فؤاد" ولا نعرف له مكانا. كان ذلك يطيب أحزانها، عندما تعرف أنها

t.me/qurssan

على الأقل لم تفقد جثمانه إلى الأبد، لكن الحزن لا يهدأ، يعود إلى هجومه مرة أخرى.

في مايو، تعرضت البلاد لموجة شديدة الحرارة. اشتعلت الحرائق في بعض المناطق. كان الهواء ساخنا كأنه نار ذائبة. لم تطق جدتي جلبابها فشقته وهي تصرخ. كانت الصرخة الوحيدة التي سمعتها منها. بعد عدة أيام تحسن الجو وعادت صامتة، لكن أثر شق الجلباب بقي محزنا مثل الموت. لم تهدأ إلا بعدما مر عليها الشيخ "فتح الله"، ورد لها دينها. كررت وراءه نص "التوبة"، بصوت خافت كأنها على وشك الموت.

حيرتني فكرة الموت في ذلك الوقت. كل ليلة أتخيله بصورة مختلفة، حتى استطعت في النهاية أن أكون تصورا واضحا عنه. الموت عربة حنطور مزينة بالورد يجرها حصان أبيض، لا يعمل إلا بالليل والناس نيام، يمر على البيوت ويختار من يشاء من أهل الأرض. لا يستطيع أي إنسان أن يرد له أمرا. لم أكن قد ذهبت إلى المقابر يوم دفن خالي "فؤاد"، وعذبت "محمد" بأسئلة كثيرة، ملحا عليه أن يصفها لي. أعددت خطة محكمة: سأظل صاحيا طول الليل، انتظر يقظة جدتي في فجر الجمعة لكي تزور الجبانة، ثم أبكي مدعيا أن خالي "فؤاد" وحشني وأريد زيارته. غمرني الحماس ليلة الخميس، سعيدا بحيلتي، رغم قلقي من أنني قد أفشل في استدعاء البكاء. بقيت يقظا، لكن النوم خطف عيني، وصحوت، على النعش يتحرك ويمشي خارج سور الجنينة، ويصدر صوتا مثل صوت الخيل. في الفجر، تسللت من فراشي، وانتظرت حتى أنهت جدتي الصلاة، وبينما كانت تلم السجادة وتستدير رأتني واقفا

وراءها تماما، شهقت وضربت صدرها: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم". فجاء البكاء وحده، دون تمثيل.

في ذلك اليوم عرفت أن المقابر بيوت مثل بيوتنا، يسكنها بشر مثلنا، لهم عوالم خاصة. رأيت عددا من النعوش، ساكنة عند مدخل القرافة، خشبها قديم ومقشر، بدت قديمة مثل خيول لم تعد صالحة لجر العربات. جلست جدتي بجوار المقبرة تحدث خالي "فؤاد"، وتسأله عن أحواله، وطلبت منه أن يسامح أخاه "نبيل"؛ فقد كان من الصعب أن يعود من ألمانيا، خاصة أن "رحيلك جاء دون توقع". كنت أتلهى بجمع زهور مستديرة هشة يتناثر وبرها الأصفر في ضوء الشمس لامعا، في كل اتجاه.

كان انتظار البريد أمرا حيويا، في تلك الفترة، وعندما تصل رسالة من ألمانيا يتموج جو البيت بالترقب. تُقرأ نفس الرسالة عدة مرات، ونحكي، مرارا، حكايات خالي "نبيل" الصغيرة، ونتخيل البلاد البعيدة التي يجب أن نذهب إليها جميعا لنتعلم. نتحدث عن نظافة البيوت والنظام الصارم في العمل والمواصلات وأسفلت الشوارع اللامع كمرآة. أحيانا يتم التعليق على تلك الرسائل في غرفة الجلوس بين خالتي "سميرة" وصديقاتها، عندما يتحدثن عن نساء أوربا. تبقى الرسالة حية ونقية كأنها لم تمس، رغم أننا عرفنا تفاصيلها، حتى يرجع "فؤاد" من الجيش، فيعاد إحياؤها مرة أخرى. تتركه جدتي ليستريح قليلا، ثم تدعوه إلى قراءة الرسالة بصوته، الذي يشبه، كما تقول، صوت "نبيل". تنقضي إجازته بسرعة، وتلحق الرسالة بإخوتها في خزينة جدتي، في طقس يشبه طقس

t.me/qurssan

الدفن. ثم تحل الفترة الساكنة الجرداء قبل أن يبدأ القلق مرة أخرى من تأخر الرسائل.

ترقّب الرسائل كان أمرا حيويا في حياة جدتي، ويرافق تقريبا سؤالها عن إجازة "فؤاد". ربما كان غطاء لا شعوريا لقلقها على "فؤاد". كان جزءا من طقوس تلك الأيام. أعود من المدرسة، ألقي بحقيبتي وأسأل عن الرسائل، أو أقول مثلهم: "تأخر خالي "فؤاد" هذه المرة". أحيانا تنقضي عدة أشهر قبل أن تأتي رسالة أخرى. يمتلئ فضاء تلك الأيام، بتتبع حكايات الشارع، وتطوير كل حدث صغير ليكون مادة للتسلية في المساء.

اختفى هذا الجو، ولم تعد للرسائل تلك الأهمية الكبيرة، كانت تبقى عدة أيام على البوفيه دون أن يفتحها أحد. غير الموت من عادات صغيرة، كنت أظن أنه لا يمكن النيل منها. على سبيل المثال انتهى إلى الأبد وقوف جدتي في الصباح على باب البيت تتحدث مع زوجة الباشا، ولم تعد السيدة المسنة التي تسكن البيت الكبير المواجه تنادي بصوتها المعدني الرفيع: "يا أم نبيل". اختفى هذا الطقس وغيره، لم تعد جدتي تطلع السطوح، ولم تعد تقرأ الجرائد أو تسمع نشرات الأخبار، والأهم أنها لم تخطُ عتبة البيت حتى موتها، وكرست حياتها للصمت ورتق الملابس.

تغير طعم البيت. أصبح الهواء ثقيلا. في لحظات الشرود أسمع همسا يسري في الجو. العيون مفتوحة على اتساعها. الصمت يجسد أصوات الأبواب والنوافذ ورنين أواني المطبخ. كفت "أفراح" عن تقليد صوت "شادية"، حتى نداءات باعة الشوارع بدت بعيدة، لا

يصاحبها ذلك المرح، عندما كانت جدتي تقف على العتبة بملابس البيت، تشترى لنا شيئا أو تساوم بائع الخضار. توقفت تلك الأحداث الصغيرة التي كانت تعطي للأيام طعما. في الصباح نرتدي ثيابنا صامتين في طريقنا إلى المدرسة. في المساء ننكب على كتبنا بنفس الصمت، كأن المرء يخشى التنفس. أصبحت غرف البيت أكثر اتساعا، والوقت بلا فواصل. لم يكن ينتظرنا شيء في المساء، بعد أن غطوا التليفزيون بكيس أبيض من قماش الدمور.

منذ ذلك الوقت أصبحت جدتي تنسى المكان الذي تركت فيه علبة الخياطة. مكانها يعلن عن جلسة سرية، عقدتها مع أطياف لا نعرف عنهم شيئا. قبل موت "فؤاد" كانت موجودة في مكانها الدائم فوق البوفيه. في كل مرة تطلبها، أصعد كرسي السفرة، وأنظر إلى نفسي في مرآة بعرض الحائط. بعد ذلك كنا نصادفها في أماكن غريبة؛ على الكنبة في الصالة، أو فوق منضدة غرفة الصالون أو على سياج الشرفة، أو على الكوميدينو بجوار سريرها. أحاط بعلبة الخياطة في الأماكن الجديدة حس بالشرود والإهمال، مختلف عن الوقار الذي كان يحيط بها فوق البوفيه.

علبة الخياطة هي علبة حلويات "شركة كورونا". بدأ الصدأ يزحف على حوافها، ولم أعد قادرا على رؤية وجهي على السطح الداخلي اللامع للغطاء، بعد أن تكاثرت عليه نقط بنية داكنة. تفوح منها رائحة الخيوط والأقمشة وخليط من روائح عتيقة. إبر بأحجام مختلفة مغروسة في قطعة من الكرتون. لفات خيط بيضاء وسوداء وأخرى بنية وزرقاء داكنة اللون. خرز من كل الألوان، وأزرار قمصان من كل الأنواع وكبسولات لفساتين البنات، ومسبحة قديمة

t.me/qurssan

لها "شراشيب" بنية، وقطع صغيرة من أقمشة ملفوفة بطريقة خاصة، تحتفظ بها جدتي لأمر ما، ياقة قميص قديمة، وقطعة صغيرة من القطيفة ربما هي التي تحمل تلك الرائحة الغريبة المميزة لعلبة الخياطة.

في أصباح السبت، عندما يخلو البيت، وتلم "أم وداد" الغسيل، يحين ميعاد الخياطة. تفرز الملابس قبل ترتيبها، وتعمل فيها إصلاحا. لكن علبة الخياطة تكون جاهزة أيضا وقت المهمات العاجلة، عندما يلاحظ خالي "محمود" وهو على وشك الخروج أن عروة القميص تحتاج إلى تضييق، أو حمالات قميص خالتي "سميرة" الداخلي تحتاج إلى تقصير. تتحرك علبة الخياطة من يد إلى يد، لكنها لا تكون على تلك الدرجة من السحر، إلا عندما تمسكها جدتي، هناك تبدو الأشياء خاصة وتعمل بتناغم وانتظام. تعرف جدتي محتويات العلبة بدقة، فعندما يضيع زرا من قميص تعرف إن كان موجودا أم لا، وهي تستريح في تقليب محتوياتها والبحث عن شيء لا يعرفه غيرها.

رغم التمرد الذي بدأت علبة الخياطة تمارسه، إلا أن البحث عنها لا يستمر طويلا، فأماكنها وإن تعددت محفوظة؛ بعكس النظارة التي كانت تتركها في أماكن غريبة فكان يصعب العثور عليها. ذات يوم ارتكبت علبة الخياطة نفس الحماقة واختفت. تم تجنيد البيت في عصر يوم خميس للبحث عنها. زهق خالي "محمود" بسرعة وخرج. "أفراح" بحثت في كل مكان، واستغلت الفرصة وراحت تقلب في أشياء خالتي "سميرة". "محمد" لم يكن جادا في البداية لكنه تحمس عندما تأكدنا من أنها اختفت فعلا. بعد

مضى عدة ساعات، لم يعثر أحد على علبة الخياطة. تحول اختفاؤها إلى أمر جاد ومحير. وأصبح البحث محاولة لحل اللغز أكثر منه رغبة في العثور عليها؛ فما إن ييأس أحدنا من العثور عليها، حتى يخطر بباله مكان لم يبحث فيه أحد؛ يقوم مسرعا للبحث من جديد. كان البحث لا يزال دائرا حتى عاد خالي "محمود" من الخارج. سألنا جدتي عن آخر مكان جلست فيه لرتق الملابس. بدت متألمة وهي تحاول التذكر بلا جدوى. ربما تركتها في غرفة السطوح، ربما في المطبخ، لم يكن ذلك مجديا. أصرت على أنها كانت موجودة يوم السبت، و"أم وداد" تشهد على ذلك. كانتا في غرفة الجلوس. كان الجو باردا وجلبت لها "أم وداد" حِراما لفته حول جسدها. لم تقل جدتي عما كانت تتحدث مع "أم وداد"، التي أصبحت -بعد زواج خالتي "سميرة"- رفيقتها الدائمة، لكننا كنا نعرف أن موت "فؤاد" يبعث من جديد في الصباح عندما يخلو البيت عليهما.

بعد عدة أشهر من زواجها زارت خالتي "سميرة" البيت. جاءت صديقاتها لزيارتها في المساء، وعندما عرفت أن علبة الخياطة قد اختفت أصابتها نفس الدهشة، وراحت تبحث عنها في البيت، لكنها عادت من جولتها مذهولة تنظر إلى الجدران والفضاء بدهشة كأنها لا تصدق أنه نفس البيت.

لا يمر يوم دون أن تسأل جدتي عن علبة الخياطة؛ فقد تحول رتق الملابس في الفترة الأخيرة إلى عادة مسيطرة. ذات مساء رجعت من بيت "أم عايدة"، تحمل عددا من لفات الخيط والإبر والزراير في علبة قديمة من الكرتون، لم يكن لها نفس المهابة،

t.me/qurssan

غير أنها كانت دواء لجدتي التي لم يعد يمر يوم دون أن تبحث عن ملابس ترتقها، وإن لم تجد، تعيد رتق ملابس قديمة لم يعد يلبسها أحد، وفي نهاية كل جلسة، تبدو عيونها أكثر اتساعا ولمعانا.

لم نعرف سر اختفاء علبة الخياطة إلا بعد موت جدتي. في تلك الأحزان الثقيلة التي غرقت فيها "أم وداد"، فضفضت عن نفسها، وقالت إنها أخفت عنها علبة الخياطة، لكنها لم تستطع أن تخفف أحزانها. عرفنا أن "أم وداد" خافت من علبة الخياطة، وظنت، حقيقة، أنها مسكونة بالأشباح. فما إن تمسكها جدتي، حتى يغيم وجهها، ولا تكف عن الحديث مع نفسها، ثم أصبحت تحملها معها كل وقت. ذات يوم شتوي كانتا وحدهما في البيت. أغلقت "أم وداد" عليهما غرفة الجلوس. يومها كانت جدتي صامتة ولم تستطع أن تمنع نفسها من تذكر حياتها كلها، وخيبة أملها، ثم راحت تبكي. يومها قررت "أم وداد" أن تخفي العلبة في سحارة الكنبة، ولم يعثر عليها أحد منذ ذلك الوقت.

لم يحاول أحد أن يخرج علبة الخياطة من السحارة، ولم أشاهدها مرة أخرى إلا في ذلك اليوم الذي كنت أساعد فيه خالي "محمود" في وضع السم في جحور الفئران، قبل أن أسافر إلى الإمارات، يومها أزحنا الكنبة، وسمعت ذلك الرنين المعدني. مددت يدى خلف ملاءات قديمة ولحاف تعطن قطنه، كانت علبة الخياطة تسكن هناك. غطى الصدأ أجزاء كبيرة منها غير أن الإبر ظلت تلمع في لفات الخيط.

* * *

بيت جدتي له باب خشبي بجوار المدخل الرئيسي، يؤدى إلى جنينة صغيرة، بها عدد من أشجار الجوافــة والليمــون وشــجرة برتقال، وتوتة كبيرة، تميل على السور المغطى بنباتــات متـسلقة. قصاري من الفخار مرصوصة في صفوف بجوار سلم يقــود إلــى شرفة واسعة، بها كراسي من الخيزران. إلى اليمين مــن مــدخل غرفة الجلوس، دولاب كبير أبوابه من الزجاج، يشتمل على عــدد كبير من روايات الهلال والروايــات العالميــة ومجلــدات تفـسير القرآن، والمجلة الزراعية ومجلة المقتطــف وسلــسلة "المختــار" بالإنجليزية في مجلدات كبيرة سوداء مرصوصة بنظام في الــرف العلوي.

خالي "محمود" هو الذي اعتني بالمكتبة وأعدها وجعلها شيئا ذا قيمة. أضاف إلى مجموعات الكتــب الدينيــة الخاصــة بجــده، ومجموعة والده الخاصة بالزراعة، مجموعة كبيرة من كتب الألف كتاب وروايات الهلال وكتب طه حسين والعقاد ونجيــب محفــوظ والأعداد الكاملة من المكتبة الثقافية، وغيرها، وجعل منها مكتبة.

قصة المكتبة كما تقول جدتي بدأت منذ وقت طويل. عنــدما توقفت، بعد أشهر من زواجها، عربة "كارو" أمــام بــاب البيــت، وأنزل منها عتال الوكالة صناديق خشبية، احتوت كــل مــا أحــب زوجها أن يحتفظ به من بيت العائلة في منطقة الجامع الأحمــدي. كانت أشياء لا يمكن أن يتركها هناك حسب كلامه. أمرها أن تفرغ

t.me/qurssan

الصناديق وترتبها. ملابس قديمة وأواني من الخزف ومسابح، ومجموعة من الكتب؛ مجلدات ثقيلة لم تكن من وجهة نظرها مهمة لبيت حديث. وضعتهم على بسطة السلم لتعطيهم لبائع الروبابكيا. ذات يوم سمعته يناديها بصوت خشن وعال لم تعتده منه في الأشهر المبكرة من الزواج. كانت لا تعرفه بقدر كاف، ولم تكن قد تخلصت بعد من خوف فتاة في الثامنة عشرة، تزوجت شابا لامعا من شباب وزارة الأشغال، مازالت تشعر بالغربة وبحنين إلى بيت أبيها. اندهشت من نبرته الجافة وخرجت مسرعة تاركة الغسيل في الطشت. رأته واقفا على البسطة، طربوشه في يده، ووجهه غاضب. وقفت حائرة، وهو يشير إلى الكتب ويسأل: "من أخرج الكتب وتركها على السلم؟". لم تستطع أن تخبره أنها كانت تنوي بيعهم لبائع الروبابكيا. كانت إجابة السؤال واضحة، فهذا البيت الذي بناه شرق المدينة، لم يكن يعيش فيه غيرهما. أمسكها من معصمها، مسكة عدائية. شعرت بالدم ينحبس في كفها. ربما لاحظ خوفها، فتركها، لكنه أمرها أن تحمل الكتب "على رأسها" وتضعها بنظام في أحد الصناديق حتى يفيق من أشغاله.

بدون قصد ارتكبت أول هفوات الزواج، ولاحظت الحسم والغضب. كانت تشعر بخوف مضاعف وهي ترص الكتب في غرفة السطوح التي بنيت لتكون مكانا للخزين. عاشت معه خمسة عشر عاما، لم تره يوما غاضبا على هذا النحو، ولم تشعر بهذا الخوف مرة أخرى. كانت تتحرى تعليماته خائفة من ذلك الغضب غير المنتظر الذي أسقط قلبها ذات يوم. بعد ذلك جاء النجار وأخذ مقاسات حائط كبير في غرفة الجلوس، وبعد أشهر ركبت الدواليب.

وضع بها زوجها مراجع في الزراعة وغيرها من الكتب، لكنه نسي الكتب القديمة في غرفة السطوح. أحيانا كان يضيف إليها بعض المطبوعات كلما تيسر له الوقت. لم يتذكر المجلدات القديمة إلا قبل وفاته بعدة أشهر، عندما سألها عن تلك الكتب، واعتبرت نسيانه اعتذارا متأخرا عن مخاوف الأيام المبكرة للزواج. أخبرته بأنهم في الصندوق في غرفة الخزين. طلب من "محمود" أن يساعده في تنظيم المكتبة. كان في التاسعة من عمره، فرحا، يصعد السلم الخشبي ويرص الكتب.

يقول "محمود" عن مجموعة جده التي تعود إلى نهاية القرن التاسع عشر إنها مجموعة نادرة. كتب لم تطبع ثانية، منها على سبيل المثال "الكليات للكفوي"، لا تجده في أي مكتبة. كتب قديمة لأبي حيان التوحيدي، ورسائل منسوخة، وعدد قليل من المخطوطات. يقول إن جده كان في الأصل يرغب في تجارة الكتب لكن الظروف ساقته إلى تجارة القماش. كُتب على هوامشها كتب أخرى، وفي صفحاتها الأولى، على الطرف العلوي الأيسر، إهداءات وتواريخ، وأحيانا حكمة أو تعليق، وأحيانا أسماء أساتذة مسبوقة بألفاظ التوقير "الشيخ الجليل.. مولانا العالم الفاضل رحمه الله"، بخط الرقعة، بحبر قديم، ربما بالريشة.

في تلك الفترة كان الكتاب له قيمة، تتم قراءته ومناقشته. التجار لم يكونوا مجرد تجار -كما يزعم خالي "محمود"- كانوا فقهاء بعضهم -مثل جده- اضطرته ظروف المعيشة أن يترك تعليمه في المعهد الأحمدي ليرعى أسرته، بعد أن يموت الأب فجأة. يضرب لي مثلا، الشيخ "منصور البنهاوي"، تعرفه؟ جده كان زميلا

t.me/qurssan

للإمام "محمد عبده" في منتصف القرن التاسع عشر في المعهد الأحمدي، كانا في رواق واحد، وسكنا معا في نفس الحوش.

يقول "محمود": عندما كنت أرتب الكتب مع أبي كنت في التاسعة. كان يرعاني كأنه يعرف أنه سيموت. حكي لي عن طفولته وصباه. كان يمر على أبيه في محل القماش في شارع الخان، بعد الانصراف من "الكُتّاب"، ويبقى هناك حتى المساء. يسمع أحاديث التجار في مسائل فقهية. الخواجات من أصدقائهم كانوا يشتركون في النقاش، لكن أحب شيء بالنسبة له كانت حكايات الحمقى والمغفلين، كانت زادا لا ينفد، ولم يكن الكتاب متاحا وقتها. كانت نسخته الوحيدة في بيت تاجر قصير ماهر في المزاح، ومشهور بخداع الفلاحين، اسمه "هارون إسماعيل"، كانوا يقسمون أن أصله يهودي، لكن الخواجة "هارون"، كما كانوا يسمونه، يقول لهم: "طظ فيكم"، ويقوم مفتعلا الغضب.

حكي له أبوه عن تلك الجلسات التي كانت موضوعات الكتب هى مادة الحديث، كما يتم تداول المواد الإذاعية والأخبار كمادة لأحاديث الناس هذه الأيام. مناخ غريب المادة الوحيدة المتاحة، غير القصص والأحداث اليومية، هي الكتب القليلة المطبوعة في ذلك الوقت البعيد. بعضهم امتلك مخطوطات وبعضهم أحب النسخ. أدوات الكتابة هي الريشة، وأقلام الحبر الحديثة. وفي فترة من حياة جده تسلى بنسخ سيرة النبي بالليل من مخطوط قديم.

كان "محمود" بارعا في حكاياته عن تاريخ العائلة. أحيانا أتخيل أنه عاش بينهم، خاصة عندما حكي عن نسخ جده للسيرة

النبوية. يضحك ويقول إن الرجل قد نسخها ليخفي خوفه من ركوب البحر. كان له صديق سوري يعمل في تجارة الأقمشة، قرر أن يعود إلى بلده، في بداية الثلاثينيات. من هناك أرسل عددا من الرسائل يدعو صديقه الطنطاوي إلى زيارته في دمشق. قضى جده ست سنوات مترددا، وعندما كان في الإسكندرية في ربيع عام ١٩٣٦ قرر أن يسافر إلى دمشق بالباخرة. أرسل المراسيل إلى طنطا بأنه سوف يتأخر عدة أسابيع وعهد إلى أحد صبيانه بإدارة المحل. بعد يومين وجدوه بعد آذان العصر يقف أمام المحل. كانت أول مرة يرى مركبا بهذه الضخامة. ظن أنها فُلك نوح، وخاف من فكرة أن يقضي يوما كاملا على متنها حتى يصل إلى حلب. رجع مضطربا وكذب على أولاده قائلا إنه شعر بمغص وأن صحته لا تتحمل السفر، وظل ذلك عبئا عليه، عالجه بالسهر ليال طويلة ينسخ سيرة الرسول.

اعتناء "محمود" بالمكتبة بدأ في عام ١٩٦٦ عندما كان أخوه "نبيل" على وشك السفر إلى ألمانيا. كان يوما مترباً من أيام أبريل. يومها توقفت عربة الحنطور أمام باب البيت، ونزلت خالته "منيرة" قادمة من بيتها الكبير في شارع الفاتح. كان "نبيل" في غرفته يعد الحقيبة. حسب أوصاف جدتي كان قصيرا، شعره أصفر وحواجب كثيفة. صموتا، في حركاته بطء واستغراق، هادئا منظما ودقيقا. يومها كانوا يجلسون في غرفة الجلوس، عندما جاء "فؤاد" من الخارج مرحا كالعادة، يشمر كم القميص إلى ما بعد الكوع. لامته أمه، لأن الجو مازال متقلبا.

يومها سألت خالته "منيرة":

t.me/qurssan

"أين الولد "محمود"؟"

كانوا قد نسوه في غمرة الصخب والاهتمام بالمسافر. بحث عنه "فؤاد"، وعاد يضحك. كان في غرفة السطوح يفرغ صناديق قديمة من محتوياتها وينظم كتبا أزهرية. نادته أمه خائفة، لأنه يترك المذاكرة، ويندس في أماكن لا يمكن العثور عليه فيها. وعندما ترك ما في يده ونزل السلم ببطء، ووقف أمامهم، كانوا يضحكون من منظره الذاهل.

يتذكر "محمود" ذلك اليوم، بعد ذلك، كبداية لاكتشاف نفسه. أول مرة يتعرف على ميله إلى العزلة وحب الكتب ثم بعد ذلك الأجهزة الكهربائية. يكتشف أنه غريب عن الحياة. كانت بداية وعي على كونه لم يخلق ليعيش في بيوت مثل التي عاش فيها. يتحدث عن ذلك اليوم بطريقة تجعله متحيرا من المصير الذي كان يشق لنفسه طريقا في جوفه. كل شيء جيد، رغم موت الأب، فسفر "نبيل" أعطى أملا للأسرة. شعر بنفسه عندما ازداد ضحكهم، يوشك على البكاء. تماسك قدر ما استطاع، وعندما خاف أن يبكي، جري بعيدا. دخل الحمام وأغلق على نفسه الباب، ثم انفرط في البكاء. كثيرا ما حاول تتبع سر ذلك البكاء، ولم يصل إلى شيء. يقول حائرا: كان بكاء بلا سبب. تخلص من كل بكاء حياته في تلك الليلة التي سافر فيها "نبيل" إلى ألمانيا.

قبل سفري للعمل في الإمارات، عندما انتهينا من وضع السم للفئران في أركان البيت وأعدنا تنظيم المكتبة، حكي لي عن ليلة أخرى من ليالي البكاء. ليلة شتوية، كان وحيدا وحدة مطلقة، عندما

بحث عن صورة "جورجيت" في أوراقه القديمــة، وشــعر بالحــب بدرجة موجعة، يومها بكي، من كل قلبه، أما عدا ذلك فلم يجعله كل ما حدث للعائلة يبكي مرة أخرى، حتى ذلك اليوم العـصيب يـوم موت "فؤاد"، (كان "فؤاد" يتعالي عليه، وكان وسيما والبنات تحبه) يقول "محمود": تصاريف غريبة، أملت على طريقــة معينــة فــي الحياة. لفترة طويلة ظل مرتبكا أمام الطريقة التي تغير بها الحيــاة اتجاهها، ويتساءل إن كان الانقلاب الحقيقي في حياتهم لــم يحــدث يوم موت "فؤاد" عام ١٩٧٠ بل يوم سفر "نبيل" عــام ١٩٦٦، لأن أمه كانت تضع آمالا كبيرة عليه؛ فهو الكبير وعليه أن يعود ليرعى العائلة.

كانت تنتظر خطاباته بشغف. تجلس على الكنبة تسند ذراعها إلى النافذة القبلية، تسمع القرآن من الراديو الكبيــر فــوق البوفيــه وتزاول هوايتها في رتق الملابس، وتسأل كل من يقترب منها ذلك السؤال الغامض الذي نعرف معناه: "لم نسمع صوت عم "مرســي" من مدة؟". كان السؤال يجعل من عم "مرســي" البوســطجي أحــد أقاربنا الذي لا يصح أن ينقطع عن زيارتنا كل تلك الفترة. انقطعت الخطابات فترة طويلة عام ١٩٦٨. كان ذلك مربكا. لم يرها أحــد تائهة، خائفة، على هذه النحو، حتى فتــرة مــوت "فــؤاد" كانــت متماسكة كما لو أن الحدث الكبير أخرج ما فيها من صلابة. كانــت تبدي اقتناعا مؤقتا بما يقال لها من أسباب تأخر الرسائل، إلا أنهــا تعود إلى حالة الشرود والصمت. لم تظهر ذلك الاقتناع الكامــل إلا عندما عاد "فؤاد" من الإسكندرية حيث كان يدرس في كلية العلوم، ورآها وقد غدت أكثر شحوبا ووهنا. ترك حقيبته بجــوار البــاب،

t.me/qurssan

وجلس جوارها، وتحدث معها عن أن البلد مضطربة، وأن أوربا نفسها تعم فيها الاضطرابات؛ الشباب في فرنسا يغلقون الشوارع. يومها استطاع "فؤاد" أن يترك لها انطباعا عن أن الدنيا "ملخبطة" وأن اضطرابات العالم سبب تأخر خطابات "نبيل". إنه اليوم الوحيد الذي ظهرت مقتنعة اقتناعا كاملا. كان "فؤاد" خائفا، وتحدث معها بجدية لم تعتدها منه. في ذلك اليوم نادت "أم وداد" وقامت معها، أخرجتا فرش البيت على السطوح. عاشت كما لو أن كلام ابنها صحيح.

بعد عدة أيام عاد "فؤاد" من الخارج، يلوح بخطاب في يده. ابتسمت وأجلسته بجوارها، وقالت: "اقرأه، أحب أن أسمع الخطابات بصوتك". نظرت إليه بعيون باسمة: "صوتك يقربه مني". جلس على الكنبة وقرأ الخطاب الذي كان "نبيل" يقول فيه إنه على وشك الانتهاء من المرحلة الأولى من الدكتوراه وإنه يمكن أن يبقي عامين حتى ينهي عمله، لكن بعض الشركات الألمانية تطلبه للعمل وهو لم يأخذ قرارا، بعد.

شهقت قائلة:

"سيترك الدكتوراه؟"

قال "فؤاد" مبتسما:

"لا تخافي، الشركات أحسن".

قالت بعصبية:

"لكنه ذهب ليتعلم، لا ليعمل".

قال "فؤاد":

"العمل أحسن".

"أحسن؟؟ إن عمل لن يرجع، أنت لا تفهم."

أقلقها هذا الأمر عدة أسابيع. ذات ليلة صحت من النوم. وقد حلمت بطائر أبيض ينقر زجاج نوافذ البيت. سمعت صوت تحطم الزجاج عاليا يتردد في البيت. أخافها بشدة إصرار الطائر على التقاط شظايا الزجاج كأنه يلتقط حبوب القمح. قضت اليوم متعبة لا تستطيع أن تهرب من غموض الحلم. في الليلة التالية، لم تستطع النوم خائفة أن يتكرر الحلم. تحركت في ظلمات الصالة. اقتربت من الونّاسة التي كانوا يتركونها مشتعلة. وسمعت حركة في الشرفة. رأت "فؤاد" يجلس وحده ويحط قدميه على كرسي أمامه. قالت:

"اكتب جوابا لأخيك قل له اترك كل ما في يدك وعد".

كانت تتكلم بحزم، كأنها قادرة على أن تعيده. قال باستسلام:

"في الصباح سأكتب له".

في اليوم التالي أجبرته على أن يكتب خطابا بأسلوبها وليس بالطريقة القديمة: تخبره بما تريد أن تبلغ به "نبيل"، ويكتب هو الخطاب، ثم يقرأه عليها. هذه المرة أجلسته في غرفة الجلوس وأملت عليه الخطاب بالكامل. كان مختصرا وحاسما: "عليه أن يترك كل شيء ويعود إلى مصر". لم يأت رد لمدة طويلة. قالت غاضبة ذات يوم: "سأذهب بنفسي إلى الجامعة وأطلب إلغاء بعثته."

t.me/qurssan

في الصباح بدا أنها لم تنم. نادت "فؤاد"، وأمرته أن يكتب خطابا ثانيا. هذه المرة كان أشد لهجة من الخطاب الأول وبه أقصى ما تملك من تهديد:

"إن لم تعد سوف يغضب قلبي عليك إلى يوم الدين."

بعد عدة أشهر جاء خطاب من "نبيل" قال فيه إنه لن يترك دراسته وإنه لا يمكن أن يسمح لنفسه أن يغضبها. اطمأنت قليلا وإن كان ليس اطمئنانا بل رغبة في تسكين المخاوف، وعللت النفس بأنه سوف يفيق ويعود. كانت البلد في حالة حرب، وقد دهنوا النوافذ باللون الأزرق. في الليل يطفئون الأنوار، فتبدو بيوت الشارع كتلا داكنة من الصخر الأسود، ولا يسمع أي صوت، فقط ذلك الإنصات والترقب لصوت انفجار في السماء. أحيانا كانت تسكن مخاوفها فتقول:

"لا يصح أن يعود في هذه الأيام".

كانت جدتي متوترة في تلك الفترة. لا تتسامح مع طلبات صغيرة منا نظن أنها غير مهمة، وتصد البائعين بعصبية ثم تلوم نفسها لأنها لا تعامل الناس بما يرضي الله. تلوم نفسها على أحداث صغيرة مثل أنها لم تنتبه أثناء تعبئة الملح وسكبت بعض الحبيبات، وترى في أشياء صغيرة كوارث كبرى. لم تكن تتحمل الجو الأزرق المنتشر في البيت، وعندما مر شيخ الحارة، ينبه على دهن النوافذ باللون الأزرق قالت غاضبة:

"دهناها مرة".

رد مبتسما:

"مرة ثانية ياستي".

قالت:

"لن أعيش في هذه الغبشة، فليضربوا البيت كما يشاءون."

يومها نزلت "سميرة"، التي كانت تنشر الغسيل مع "أم وداد"، من فوق السطح ورأت أمها غاضبة، وجهها منتفخ، مثلما يحدث للخالة "منيرة"، وحاولت أن تطمئنها، لكن جدتي قالت شاكية:

"يريدون أن ندهن الزجاج مرة أخرى"

ثم تطلعت إلى خالتي "سميرة":

"تعودت على هذا النور بطلوع الروح".

بعد عدة أيام دوت صفارة إنذار طويلة، بدت كأنها ستستمر طول الحياة. أغلقوا الراديو وسكن البيت. منتظرين أن تدوي أصوات في السماء. قالوا إن مصانع المحلة قد ضربت. في اليوم التالي عرفنا أن طائرة وقعت في قرية بالقرب من المنصورة وأسروا طيارها. قال "محمود":

"لا أحد يصدقهم".

اندهشت من أن جدتي التي كانت تناكف شيخ الحارة من يومين ترد اليوم على خالي "محمود" بحماس طيب ومتسامح:

"ربنا ينصرهم، إنهم يحمون البلد".

قال بطريقته الساخرة:

"قصدك يخربون البلد".

t.me/qurssan

قالت غاضبة:

"اسكت. أنت لم تر شيئا. لقد بنــوا البلــد. مــصانع وأرض للفلاحين. لم تر شيئا، كان الناس حفاة. اسكت، إنهم يبنون البلد."

قال ساخرا:

"بدليل أننا لا نجد الكبريت".

قالت: " اسكت واذهب لحالك".

كان بالفعل أمرا لا يصدق، فكثيرا ما جلست مع جــدتي و"أم وداد" نقطع ورق الكراريس القديمة إلى شرائح طويلــة ونــضعها بنظام بجوار الوناسة المضاءة طول الوقت.

ذات ليلة سمعنا الشباب على الناصية يغنون:

"الحقي يا أم زكى...

زكي بيعيط".

شاب يرقص ومطواة في يده، وتتدلى مــن صــدره سلــسلة ذهبية. يقف "محمود" بجوار "منير زاهر" أمام البيت المقابــل. فــي نفس الليلة علا الصراخ من بيت الجريج. كان الشاب يتهجم علــى البيت ويصر على أن تخرج "جورجيت" وتقف أمامه عارية في بير السلم كما وعدته. استطاع كبار الحتة أن يوقفوا هذا العبث، وبقيــت جدتي ساهرة حتى عاد "محمود" من الخارج. قالت بحسم:

"إن رأيتك تقف مع هؤلاء الصيَّع سأقطع رقبتك".

قال "محمود":"البنت مشيها بطال".

قالت بغضب:

"اخرس لك أخت."

في تلك الفترة كان قد أطال شعره حتى وصل إلى ياقة قميصه. يعود في الليل حاملا بعض الكتب، وتفوح منه رائحة العرق. يأخذ حماما ويدخل غرفته المكدسة بالأشياء: ورق وصور وجرائد وملابس وكتب، وعلى منضدة صغيرة وراء الباب، عدة تصليح الراديو. دائما تجد جهازا مفتوحا ينتظر التصليح. أباجورة معلقة فوق منضدة تصليح الأجهزة، وأخرى بجوار السرير. أعرف، من نوع الضوء الذي ينعكس على الزجاج العلوي للباب، إن كان يصلّح جهازا أو يقرأ كتابا. أتخيل البقعة السحرية المضاءة بنور الأباجورة الكثيف، وراء الباب. أشم رائحة القصدير، وأسمع خرخشة، وصوت يأتي من بعيد ثم ينقطع فجأة. يبحث بإبرة اللحام عن منفذ لتلك الأصوات السائلة في الفضاء. عندما ينام البيت يتسلل من غرفته، يعد كوبا من الشاي ويتمدد على السرير ويقرأ.

بعد موت خالي "فؤاد" نقل معداته وأجهزته إلى غرفة فوق السطوح. دهنها باللون الأبيض. وضع كنبة قديمة على اليمين، وسريرا سِفريا على اليسار وبينهما كرسي أسيوطي تحت النافذة، وثبت عددا من الأرفف للكتب. بجوار الباب استقرت المنضدة الصغيرة التي تراكمت عليها معدات إصلاح الراديو. الأباجورتان تم نقلهما أيضا. وضعت واحدة فوق منضدة التصليح والأخرى بجوار الكرسي الأسيوطي. سكنا غرفته أنا و"محمد" بعد سفر أبي ليعمل مدرسا في مطروح. فقدت الغرفة روحها، لم تعد ذلك المكان

t.me/qurssan

الجذاب، مهبط الأصوات السائلة في الفضاء، محاطة بدخان القصدير.

مثل شباب الحتة، يقضي "محمود" وقتا طويلا من الليل واقفا على الناصية. بعضهم يرسب في الكليات كي لا يدخل الجيش. كان يرتدي نظارة طبية، وأخوه مات في الحرب، فكان من المستبعد أن يدخل الجيش، لكنه يرسب في معهد الإلكترونيات بدون سبب واضح. في الليل يحدثني "محمد" عن ذلك. كان يعرف كل شيء، لكني لم أكن أميل إلى معارفه، ورغم أنه بدأ يكبر وتطلع له تفاحة آدم، وشعيرات خشنة على شفته العليا، إلا أنني لم أهتم برأيه، لأنه يجهل ما أعرف، يجهل غرام خالي "محمود" بـ "أحلام" طالبة مدرسة معهد المعلمات التي تسكن الطابق الثاني من بيت "العباسي"، رأيته عدة مرات، يشير إليها، عندما تخرج إلى الشرفة، بقميصها المنزلي الذي يرتفع كثيرا عن الركبة.

ضوء الشمس يدخل في الصباح من نافذة المطبخ. تنعكس أشعته على البلاط وتضيء الطرقة. أشعر بتوتر في تلك الأصباح، مغموس في صمت جدتي. توتر خفي يسيل في الجو. لم أعرف موضوعه بالضبط. هناك افتراضات كثيرة لأخي "محمد"؛ سهر خالي "محمود" حتى ساعة متأخرة في الخارج، طول شعره، رسوبه في الامتحانات!!

توترات الضحى مع جدتي أصبحت جزءا من الحياة. تبدأ باعتراضها أن يظل نائما حتى الظهيرة. لا تتحمل أن يعيش معها في البيت رجل طويل عريض يقوم من النوم – مثل العواطلية –

في العاشرة. نراه ينزل السلم مكدرا، ببيجامته الواسعة (ملابسه كانت دائما واسعة عليه، عدا البنطلون الذي كان ضيقا أعلى الفخذين وواسعا من الأسفل، ولأنه كان قصيرا فقد ناسبته موضة الأحذية العالية الكعب، ولم تستسغ جدتي الأمر وسألته مازحة إن كان يستطيع أن يمشي في أحذية البنات هذه) يبقى وقتا طويلا في الحمام، ولا يمكن لأحد أن يتحدث معه في تلك الساعة، يكون عابسا، ومرهقا، ويلوح على جبينه التجعد، وشعره يبلل ياقة البيجامة.

حدثني بتعجب، بعد ذلك بسنوات، عن تلك الفترة التي تعقدت فيها المشكلة مع أمه حتى أنه قرر أن يترك البيت. كان يقضي وقتا طويلا مع "أشرف العباسي" و"منير زاهر" في غرفة فوق سطوح العمارة المقابلة. كانوا يشكلون مجموعة صغيرة منذ أيام المدرسة الابتدائية. يقضون أغلب الوقت في لعب الشطرنج. كان "أشرف العباسي" مازال مهتما برحلة، قام بها في العام الماضي، مغامر نرويجي، مستخدما قاربا من البردي، قاطعا به المحيط الأطلنطي حتى وصل إلى شواطئ الكاريبي، ليثبت أن المصريين القدماء وصلوا إلى شواطئ أمريكا. في كل مناسبة يحكي شيئا عن تلك الرحلة، ويتأمل تفاصيلها العجيبة. لم يكن يهتم بما إذا كان المصريون قد وصلوا إلى سواحل أمريكا أم لا. كان مندهشا من جرأة ذلك الرجل وروحه المغامرة. "منير زاهر" عدل نظارته وقال: "لحس النرويجي عقلك. كل الثروة البشرية لن تكون قادرة على صنع حضارة بحق، إلا إذا حكم العمال العالم." في ذلك اليوم فتحوا مرة أخرى موضوع الحرب. كان الشباب في الجامعة قد

t.me/qurssan

بدأوا يطالبون بالحرب، وكان "منير" يـتحمس للأمـر. رد عليـه "محمود" بغضب:

"لا أعرف لم يحاربون إن كانوا غير قادرين على الحرب."

قال "منير" بزهق: "ييه... مرة ثانية!!

صمت "محمود" مندهشا من رد صديقه. أكمل "منير":

"تعبت منك يا أخي. أنت عدمي؟!"

عدل "محمود" نظارته وقال:

"عدمي؟!"

أطاح بقطع الشطرنج وقال:

"هذا الخراب وتطالبون بالحرب؟! ناس غريبة؟!".

"الحل هو الصلح؟"

"إن لم نكن قادرين على الحرب فعلينا قبول الأمر الواقع".

من فوق سطوح بيت "منير زاهر" يرى غرفته. بـدت مـن بعيد صغيرة ولا تنفع لحياة إنسان. شعر بحنين إليها. حدثني كثيـرا عنها، وكيف كانت مكانا أثيرا، قال باسما: "غرفة مميـزة، تجـسم صوت الريح والمطر والبرد في الـشتاء، وفـي الـصيف تجـسم الحرارة. تخزن الطقس وتجعل المرء يشعر بأنه يعيش بعيدا عـن البيوت".

في ذلك اليوم أهانه بشدة اتهام "منير" لـه بالعدميـة وعـدم الوطنية، وضاعف من حسه بالوحدة، ولام نفسه كثيرا لأنه تحـدث

بصراحة مع أشخاص ظن أنهم أصدقاء. إلى الآن ظلت حكمة السيد المسيح: "لا تلقوا بدرركم قدام الخنازير كي لا تدوسها وتدوسكم"، تبريرا كافيا لصيانة أسراره الحميمة.

حاول أن يفكر ما الذي يصونه. هل الحياة غالية إلى هذه الدرجة؟ لم يكن شيء في الحياة غاليا عليه، هل هو خائف؟ كل ما كان متأكدا منه أنه قد "حرن". كان يصلّح راديو قديما، ولازال يفكر في الطريقة التي تعامل بها "منير" معه. لم تكن الحياة غالية عليه إلى هذه الدرجة -كما قال- إذن لِمَ يتشبث بعدم دخول الامتحانات؟ لم يكن يعرف. كان يرفض أن يتحرك فحسب. جسده يرفض أن يطيع. بعد ذلك قال: "ربما كان نوعا من التمرد الجسدي، مثل شخص تصيبه تقلصات في بطنه عندما يدخل مكانا لا يحبه". لم يكن يحب أن يذهب إلى المكان الذي جاءت منه الكوارث لأسرته، لا يريد أن يحارب أو يسافر إلى الخارج. سيبدو له بعد سنوات، مقدار الألم الذي عاناه، وكيف كان مستعدا أن يفعل أي شيء حتى لا تحزن أمه مرة أخرى. من الغريب أن رسوبه في الدراسة الذي كان حماية لها من الألم، كان مصدر ألمها.

سمعْت جدتي تقول بصوت عال: "رح في داهية..." وخرجت من غرفته فوق السطوح. مشت حتى بسطة السلم، ثم استدارت عائدة: "لن أعيش لك طول العمر.."

باب الغرفة مفتوح على سطح البيت الذي تفرشه أشعة باهتة. يميل خالي "محمود" على حقيبة كبيرة، ويلقي فيها ثيابه وكتبه. قالت بغضب:

t.me/qurssan

"إن أردت أن تهرب مثل العيال، وتترك أمــك وأختــك، الله يسهل لك."

رأيت "محمد" يصعد السلم، ويتوجه، دون أن يرانـــي، إلـــى الغرفة. أقف في الطرف المقابل مستندا على السياج، وفـــي يـــدي بكرة الخيط لكي أقوم بعمل الطائرة. وقــف إلـــى جانـــب خـــالي "محمود" وتحدث معه، ثم رأيته يشد قميصا من يده. استدار خـــالي "محمود" ودفعه بعيدا.

الحصى الصغيرة على السطوح تحيطها ظلال كثيفة، ولـــون الشمس يزداد احمرارا. تابعت "سامي" على سطوح البيت المجاور، يلوح برايته الحمراء للحمام الذي يدور بعيدا فوق البيوت العالية في شارع سعيد. أجنحته ترفرف بلا توقف. سمعت "محمد" يقول شـــيئا بصوت عال. انتبهت إليه، واقتربت منهم، وسمعت، خافتا، صـــوت صفير "سامي". جلست جدتي على بسطة السلم وقالت:

"يا رب لم كتبت على هذا الهم".

يلم خالي "محمود" ملابسه بهدوء وإصرار. ســـمعت مـــرة أخرى صفير "سامي" يتردد في السماء. اقترب منه "محمد" وقـــال بصوت خشن أكد لي أنه قد كبر:

"إذا نزلت سوف أرمي نفسي من فوق السطح".

دفعه خالي "محمود" جانبا. أغلق الحقيبة، وخرج من الغرفة. سبقه "محمد" وألقى بنفسه من فوق درابزين السلم. كنت أتابع سرب الحمام يعود ويحلق في دائرة صغيرة بالقرب من سطوح البيـــوت، و"سامي" لا يكف عن التلويح بالراية الحمراء. لم أر اللحظة التـــي

طار فيها "محمد" وسقط على السلم. سمعت الصرخات الحادة لجدتي، التي كادت أن تتدحرج. كان صراخها حادا مليئا بالفزع. ألقى "محمود" الحقيبة من يده فانفتحت وتناثرت الملابس. انحنيت على الدرابزين. كان "محمد" يرقد على البسطة الوسطى مشجوج الرأس وقد تغطى وجهه بالدم. حمله خالي "محمود" واندفع خارج البيت. كان باب الجنينة مفتوحا. جريت وراءهم حتى شارع سعيد. بقع صغيرة من الدم داكنة على أسفلت الشارع. كان صندلي مفتوحا والإبزيم المطوي تحت قدمي يؤلمني. جريت حتى المستوصف في شارع الإمبابي. لمحت جدتي تجلس على دكة خشبية خارج إحدى الغرف، تتطلع شاردة إلى الحائط، وباب الغرفة مفتوح، و"محمد" يرقد على سرير عال عليه ملاءة بيضاء، والطبيب يميل عليه. اقتربت من جدتي. تنبهت لوجودي وقالت:

"تعرف تروح البيت تجيب الطرحة السمراء؟"

ساد البيت صمت ثقيل، في الفترة التي قضاها "محمد" ملفوف الرأس بالشاش الأبيض. كان صامتا، ولم ألحظ أي ضغينة بينه وبين خاله. يسهر على الدروس، وينظر إلى الحوائط نظرة جامدة. بقي "محمود" في البيت عدة أيام. لم يكن يُسمع شيء غير حركتنا صامتين من غرفة إلى أخرى. قضت خالتي أغلب الوقت بجوار "محمد" صامتة رابطة رأسها بمنديل أسود، فلم يكن الصداع يفارقها. تقوم جدتي من النوم شاحبة، عيونها واسعة تبرق، وخيل إلى أنها لم تعد تتعرف علينا.

***

t.me/qurssan

مسَّدت خالتي "سميرة" على شعري، وقالت: "ولا يهمك يمكن تصنع طائرات حقيقية عندما تكبر". ثم قامت وفتحت المكتبة وأعطتني كتابا. قالت إنه أجمل قصة في الدنيا. كانت أول رواية أقرأها. سجين فوق جزيرة معزولة، يحفر نفقا ليهرب، فيجد نفسه في زنزانة أخرى، لرجل عجوز، على وشك الموت، يعطيه خريطة كنز. عندما يموت العجوز، يرقد السجين مكانه، ثم يُلقى به في البحر على أنه جثة العجوز. يتحرر ويعثر على الكنز، وينتقم من أعدائه. لا أظن أنني سأقرأ كتابا بعدد المرات التي قرأت فيها هذه الرواية.

منذ ذلك الوقت تعلقت بالمكتبة، عرفت محتوياتها. المجلدات الثقيلة، والكتب المكتوبة بخط قديم، وتفوح منها رائحة التراب، والكتب الحديثة الملونة، المجلات العلمية التي أستغرق وقتا طويلا أتأمل صورها. قرأت كثيرا من قصص جورجي زيدان وألف ليلة وليلة، وروايات الجيب، وغيرها من القصص التي شكلت سدا أمام توتر الحياة في بيت جدتي، حتى لاحظ خالي "محمود" أن الكتب اختل ترتيبها، ولم يعثر على كثير منها، فأغلقها بقفل.

أصبحت غرفة الجلوس مكانا مظلما. في بعض الأوقات أجدني منجذبا لدخولها والجلوس وحيدا على كرسي في الظلمة الموشاة بضوء شاحب. أنظر إلى القفل المعلق على باب المكتبة ينطلق منه بريق ساخر أصفر اللون. لحظة من الصعب أن أتبين ما

فيها من الظلام والخوف، عندما أراقب كعوب الكتب، بعيدة نائية، تسكن عالما آخر. لا شيء بقادر على محو القلق الذي شعرت به في تلك اللحظات. أصبحت غرفة الجلوس بثقلها وظلمتها مكانا جاذبا. انجذب إلى إغواء مشع بأن القفل سيكون مرفوعا هذه المرة. في كل مرة تصيبني نفس الحيرة والخوف، عندما أرى القفل هناك ساكنا فوق باب المكتبة. مع تكرار التجربة لم يخفت الأمل، وظل ينبعث في لحظات غير متوقعة.

شكوت إلى خالتي "سميرة". قالت: "سأكلمه". في اليوم التالي ادعت أنها انشغلت طول اليوم، وأنه يقضي أغلب الوقت خارج البيت. انتظرتُه ذات ليلة حتى عاد من الخارج. اندهش من سهري في تلك الليلة الباردة، وعندي مدرسة في الصباح. حدثته عن قفل المكتبة، فغام وجهه، وقال بجدية إنني لا أعتني بالكتب، ووعدني بأنه سيفتح المكتبة، "سيسمح لي بفترة اختبار".

في اليوم التالي ظلت المكتبة على حالها. القفل مرصود فوق الباب. لم أصدق ما قالته خالتي "سميرة" من أنه ينسى. منعني حزني أن أتحدث معه مرة أخرى، وعرفت أنه يسوِّفني. في اليوم التالي قررت أن أبحث في مكتبة المدرسة، رغم تهيبي من تلك السيدة النحيلة التي ترتدي إيشاربا أسود وتجلس على كرسي بعيدا عن المكتب الذي يواجه الباب، تنظر عبر النافذة الزجاجية إلى الخارج. كانت عبوسا، وخوفي منها يعادل خوفي من الأرامل اللاتي يزرن الأموات في صباح الجمعة. تجرأت واقتربت حاملا كتابا صغيرا، كلمة "الكهرباء" مكتوبة على غلافه بلون أحمر. قالت بصوت خافت: "ليس للإعارة". لم أناقش. تركت الكتاب على

t.me/qurssan

المكتب، واستدرت إلى الباب، منصتا إلى صخب العيال في الحوش. كان في صوتها نبرة خشنة وعدائية، منعتني من الكلام. في ذلك اليوم تكعبلت على السلم وكسرت النظارة، وعدت إلى البيت في جو مضبب. الأشكال غريبة. تلمع مناطق أخاف أن تكون مشتعلة. حاذيت رصيف الڤيلا القديمة في شارع سعيد. أصبح نباح الكلب -في باحة الڤيلا- الذي كنا نتسلى بمشاهدته في الصباح، مخيفا، وكئيبا. عندما وصلت إلى البيت مددت يدي بالنظارة المكسورة إلى جدتي. أمسكتني من يدي، وجلست بجانبي صامتة على الكنبة.

في تلك الفترة كنت خائفا خوفا غامضا. الخوف أثير أسود غير مرئي تحت جلد الحياة الأبيض العادي. لم يكن الموت هو مصدر خوفي، بل الظلام الذي سأسكنه بعد أن أفقد البصر. كان عليّ تحصيل أكبر قدر من القصص والحكايات والصور قبل أن ينطفئ النور. لا أعرف من غرس تلك الفكرة بهذه القوة حتى أصبحت إحدى أشباح طفولتي، وكيف تلاشت بنفس السرعة التي تلاشت بها تلك الأيام. في الليل أستيقظ، أسمع همسا بعيدا ثم صمتا ثقيلا كأنه وشيش، يأتي من باطن الأرض. أغمض عيني. إنه نفس الظلام الذي يسكن فيه خالي "فؤاد". أفتحهما بسرعة خائفا أن يكون الظلام هو الموت. ذات ليلة قمت مفزوعا بعد أن رأيت بئرا مظلما يبتلعني. جاءت جدتي من غرفتها، ولما رأتني جالسا أبحث عن النظارة، أخذتني لأنام في غرفتها. لم أستطع النوم. الظلمات مختلفة عن ظلمات غرفتي. الدولاب ثقيل ومتربص، وهواء الغرفة تحوم فيه أصوات هامسة. كنت أظن أن جدتي تنام مع أرواح من رحلوا.

في الصباح عندما سألتني خالتي "سميرة" عن سبب خوفي، كـذبت قائلا إنني رأيت نعش خالي "فؤاد".

في ذلك اليوم شعرت بوحدة كثيفة. الضوء أصـفر باهـت، وكنت أرتعش كأني على وشك أن آخذ دور برد. راجعت في ذهني مجددا رواية الكونت دي مونت كريستو، لكي أعزي نفـسي لكـن القوة التي امتلكها البطل كانت أكبر مني. فكرت أنني يمكن أن أحل مشاكلي بالتخيل ما دمت لا أملك القوة الكافية لحلها. كان الخـوف من العمى يزداد كل يوم، وفكرت أنه من الممكن أن أتخيـل كـل شيء، يمكن أن أحل كل شيء على أنه لغز، وكـان هـذا أكثـر الأمور عزاء.

ذات ليلة تسللت إلى غرفة الجلوس، ولدهشتي وجدت القفـل مرفوعا عن باب المكتبة. يومها رحت أقلب في الكتب، ثم أخـذت كتابا عن نبات الذرة. جلست أقرأ وأتابع الصور. تحول نبات الذرة في هذا الفرح بالمكتبة المفتوحة إلى شيء عجيب. كل لحظة مـن لحظات نمو النبات أعجوبة، وكذلك تنوع أشكال الحبوب، وألوانها، واختلاف أشكال الأوراق والسيقان. حياة النبات حيـة بـالتغيرات والتعقيد والمخاطرة كحكاية خرافية. كان عالما غريبا ومشعا يظهر لي في تلك الليلة التي كانت أكثر الليالي التي عشتها حبـا للكتـب. ومن يومها تقريبا لا أستطيع النوم دون قراءة أي شيء. في الصباح وجدتني جدتي نائما على نفس الكرسي، وقد سقط الكتاب عن يدي. أنبتني لأنني تركت فراشي، ولامت خالي "محمـود" لأنـه أغلـق المكتبة.•

t.me/qurssan

بعد عدة أيام سمعت مدرس الرسم يقول إنه يمكن لنا أن نرسم الأشياء من الذاكرة بشرط أن نتفحصها طويلا ونحن ننوي أن تظل حية في أذهاننا. ساعدتني هذه الفكرة العابرة في الدخول إلى مرحلة جديدة من مقاومة العمى. يمكن أن أعيش الشيء وأراه دون حاجة للبصر. منذ ذلك الوقت أصبحت الرؤية دراستي. التفحص ومتابعة دقائق الأشياء. يوم الجمعة أبقى في الجنينة، أراقب حركات النمل وطيران الحشرات الصغيرة، ويكون يوما رائعا لو صادفت خنفساء، حركتها البطيئة تسمح أن أتأملها وأراقب طابعها الحثيث في الحركة. كل ورقة من ورق الشجر أحتفظ بها وأتفحصها طويلا، أميز بينها وبين الأوراق الأخرى. ورق الشجر يبدو خريطة لأمر سري وساحر، كذلك الصور والوجوه والملامح. كل شيء عندما نتفحصه يزداد وضوحا ومتعة. في كل مرة تظهر تفاصيل جديدة، ورغم أنني أدركت أنه لا يمكن تخزين صورة طبق الأصل من الأشياء في الذهن، وأقصى ما يمكن عمله هو تخزين صورة تقريبية، غير أن متعة الرؤية قد فتحت لي أبوابها. وجذبتني متابعة الحمام الذي يطيره "سامي" ابن "أم نوسة" فوق السطوح كل يوم.

كان "سامي" حكاية الشارع في ذلك الوقت. عندما يظهر في البلكونة يثير المخاوف. يقف مذهولا بشعره الطويل وبيجامته المخططة، لا يكف عن الحديث مع نفسه بصوت مرتفع. أحيانا يشير إلى المارة ويناديهم بأسماء غير أسمائهم، أو يزعق فيهم، أو يخطب ملوحا بيده للجماهير كأحد الزعماء. كان يتراوح في نظرنا بين الجنون والبطولة، فقد جاء من سيناء ماشيا على قدميه. في يونيو عام ١٩٦٧ تاه في الصحراء. لم يكن معه غير زمزمية

صغيرة. وعندما لم يجد ما يطعم به نفسه، أكل بقايا النباتات الصحراوية الناشفة. بعد ذلك أكل الرمل والزلط. أخيرا لم يستطع المشي على قدميه. سقط في مكانه. كان على وشك الموت، راقدا وحده في الصحراء، عندما فتح عينيه وجد أمامه رجلا طويلا يرتدي بدلة كاملة وحذاء بنيا لامعا. قال الرجل مبتسما بجدية خالية من الود:

"اسمي "عازر"."

لم يصدق "سامي" نفسه، أن يرى في الصحراء رجلا مهندما إلى هذا الحد، كأنه ذاهب إلى حفل مسائي، لا يحمل سطح حذائه اللامع أي ذرة غبار. قال "عازر": "سأدلك على الطريق، لكن لا تعد هنا مرة أخرى."

"سامي" يجرجر قدميه يحاول اللحاق بـ"عازر"، وبطنه تتلوى من شظى الصخور التي أكلها. في كل لحظة كان على وشك أن يسكب الدم من جوفه، والطريق يطول بلا نهاية. بعد مسافة طويلة، بحث عن "عازر" فلم يجده. كان تائها مرة أخرى وسط تلال صخرية لا مخرج منها. ظل يصرخ لأن "عازر" خدعه وتركه في قلب الصحراء. ظل يصرخ بلا انقطاع حتى مات. كان قد مات فعلا، كما قالت "أم نوسة" لجدتي، وفي غمرة الموت سمع أصوات طيور، ورجل بدوي يقترب منه. أسنده وقاده إلى خيمة صغيرة. في اليوم التالي قاده البدوي إلى مركز تجميع الجنود في بورسعيد. من هناك رُحل إلى إحدى المستشفيات في القاهرة. يظن "سامي" أن صوت الطيور هو الذي أعاد إليه الحياة.

t.me/qurssan

كانت قدماه قد أدمتهما رمال الصحراء بطريقة حيرت الأطباء. الجروح لا تشفي. تتغطى بطبقة خشنة من الجلد كأنها صدفة حيوان بحري، ما تلبث أن تسقط وتعود القروح إلى شكلها الأول. أثناء إقامته في المستشفي بدأت أحاديثه عن "عازر". كل يوم يضيف تفاصيل، ويحكي الحكاية بطريقة أخرى. أخبر الأطباء، الذين كانوا حائرين أمام قروح قدميه، بأنه يريد أن يدلي بمعلومات خطيرة إلى المخابرات. استجابوا إلى طلبه، بعد أن أصبحوا غير قادرين على معرفة مرض قدميه أو علاجه.

قضى في مقر المخابرات العسكرية أسابيع في غرفة مظلمة. كانوا يستجوبونه ثم يعيدونه إلى الغرفة. ذات يوم فتحوا الباب؛ كان قد نقب قطعة من الحائط. الأمر العجيب أن الغرفة لم يكن بها أي أثر لبقايا طوب الحائط، ولم يكن يحمل أي آلة حادة. في النهاية وجدوا على لسانه آثار حمرة الطوب. رحلوه في الحال إلى مستشفي الأمراض العقلية. وأوصوا أن يحجز في غرفة وحده لأنه مريض خطير. لكنه لم يبق في المستشفى غير أسابيع فقد فتحوا غرفته ذات يوم، فوجدوها خالية، وزجاج النافذة مكسور، ولا أثر لشظايا الزجاج في أي مكان.

في نفس الوقت كانت "أم نوسة" صباح كل يوم، ترتدي التايير الأسود الوحيد. تربط رأسها بمنديل أسود تعقده تحت ذقنها. تعلق حقيبة لامعة مشققة الجلد على ذراعها، وتخرج من بيتها المجاور لبيت جدتي، ولا تعود إلا في الليل. تسأل في الأقسام والمستشفيات ومراكز ترحيل للجنود. تسافر أحيانا في القطارات، بلا تذاكر، وتسأل أي إنسان دون تحرج، وتحكي حكاية ابنها

"سامي" الذي لم يعد من حرب ١٩٦٧. عندما تعود في الليل، تضع بنتها الكبيرة، تحت قدميها، حلة ماء دافئ بعد أن تذيب فيه الملـح. البنت الصغيرة تسخن الطعام. كان أفراد البيت قد نحلن وأصـبحن شاحبات كأنهن أطياف، عيونهن لامعة ومستعدات للعراك فـي أي لحظة. من حين لآخر كنا نسمع صرخات آتية من بيت "أم نوسة". كانت تعجن البنات ضربا كأنهن سبب ضياع "سامي". ذات يـوم، كانت الصرخات حادة. كسر الجيران باب الـشقة وحملـوا البنـت الصغيرة التي كادت تموت تحتهـا. كانـت تـضربها لأنهـا رأت "سامي" في المنام وهو يغرق. بعد فترة قليلة سمعنا زغرودة تـأتي من بيت "أم نوسة"، عرفنا أن أحد أقاربها، عثر على "سامي" يعيش في قرية صغيرة على أطراف البراري بالقرب من بحيرة البرلس.

عندما جاء "سامي" ليعيش مع أمه في بداية السبعينات، لـم يكن يبدو أن هذا الشاب النحيل، ذو الشعر الطويل الزائـغ العينـين هو الذي تحكي عنه تلك الأساطير، خاصة أنه كان هادئا، مـشغولا بإقامة غية حمام على سطح البيت. في المغرب نراه فوق السطوح، يلوح براية حمراء. يحلق الحمام في دائرة واسعة، بعيدا في عمـق السماء المكشوفة المغمورة بالضوء. يظلل "سـامي" عينيـه بكفـه ويتابع التحليق المتراخي، المبتهج. تبدأ أشعة الشمس في الانسحاب من الشرفات، ومن زجاج النوافذ، ويبدأ في إطلاق صفير متمـوج، على فترات متباعدة كأنه يعلن بدء السباق. الحمام يطير بحمـاس، في دائرة واسعة ويمضي نحو الغرب طويلا. يلتقط "سامي" الرايـة الحمراء، يلوح بها، ويطلق صفيرا حادا مصرا وآمرا. تضيق دائرة التحليق، ويصبح أكثر قوة، يمكن للمرء أن يسمع رفيف الأجنحـة.

t.me/qurssan

يلوح بالراية الحمراء، لكنهم لا يعبئون به، تغمرهم الشمس عندما يتجهون نحو الغرب، ثم يصبحون أكثر دكنة في الجهة الأخرى. السماء تبرق بزرقة غنية، والحمام يصر على التحليق، ويشتد تلويح "سامي" بالراية الحمراء، ويأخذ صفيره نغمات مختلفة، متوجة، ملحة، يعرفها من عاش في الشارع في ذلك الوقت على أنها علامة المساء المميزة لتلك الفترة. تضيق دائرة التحليق، حتى تنسل واحدة مرفرفة بأجنحتها وتقف على طرف الغية، تتبعها أخرى، وأخرى وأخرى، وتبقى مجموعة صغيرة ترفرف حتى يصبح لون السماء داكن الزرقة، ويكف "سامي" عن الصفير والتلويح بالراية الحمراء.

عندما يخرج في الصباح ليشتري علبة سجائر من "صبحي" البقال، تحمل قدماه الدليل على صدق الأساطير. دائما يرتدي شبشب أصغر من قدميه الغريبتين، فيبدو الجلد سميكا مشققا كأنه صدف، وليس جلد آدمي. أصابع القدمين متفرقة تحتل جزءا كبيرا من مقدمة القدم، كأنها تحور عن مخالب. تأكدت من غرابة قدميه عندما طرق باب بيت جدتي ذات يوم. فتح خالي "محمود" الباب. نزل "سامي" بسرعة الدرجات القليلة للجنينة، كأن شخصا يطارده. يومها أخبر خالي "محمود" أن فرخ حمام مريض حط على سطوحنا. كان يتكلم بسرعة. يتطلع خلفه في كل لحظة، وينظر إلى باب الجنينة الخشبي المفتوح كأنه ينتظر شخصا. لم يكن خالي "محمود" خائفا منه، بل راح يتحدث معه كأنه يفهم ما يقول. صعد السلم أمامه إلى سطح البيت. توجه "سامي" مباشرة إلى ركن السور واقترب بحذر من الفرخ الذي استكن له. أمسكه برفق ومسد على جناحيه عدة مرات وهو يهمس. نزل السلم يحكي لخالي "محمود"

كيف تعلم تربية الحمام الزاجل في عزبة بالقرب من بحيرة البرلس: "نادوني، كانوا يحلقون حولي كلما نمت، تركت الدنيا وذهبت إليهم." قال إن عنده نوع نادر من الحمام الزاجل. كان مندمجا في الحكاية عندما عبر الصالة، ولم يسمع تحية جدتي. دخل غرفة الجلوس، ثم توقف فجأة أمام صورة "فؤاد" الكبيرة بالزي العسكري. أشار إلى الصورة وسأل عنه. كذب خالي "محمود":

"لم ينزل أجازة من مدة".

قبل أن يخرج، استدار عائدا. وقف أمام الصورة مرة أخرى. قال: "فاكر أيام ما كنا نلعب الكرة، كنت أغلبه.. صح؟"

طوح "محمود" رأسه، وعلى شفتيه ابتسامة بلا معنى. انتظرنا أن يتحرك، لكنه نسى نفسه أمام صورة "فؤاد"، ونسي فرخ الحمام الذي بدأ ينقر أصابعه. أفاق من استغراقه. نظر إلى الفرخ، وقال بغضب:

"مالك؟."

رفع يده إلى خالي "محمود" ثم أشار إلى الصورة وقال:

"يجب أن يأخذ باله من "عازر" إنه جاسوس خطير".

فجأة اكتسى وجهه بالغم، وهبط درجات الشرفة، وقال بأدب:

"من فضلك إن جاء في أجازة يجب أن تخبرني حتى أحذره من "عازر" إنه يتكلم عربي مثلنا."

منذ ذلك الوقت، كان "سامي" يطرق باب الجنينة كل فترة، ويسأل عن "فؤاد". خرجت له جدتي ذات يوم وقالت بود:

t.me/qurssan

"لا تتعب نفسك يا "سامي" إن جاء "فؤاد" سأبلغك."

عادت لتلوم خالي "محمود" لأنه لم يقل له الحقيقة، وأنه مثل الناس عامله كمجنون.

ربما أهاجت صورة "فؤاد" جنون "سامي"، لأنه راح منذ ذلك الوقت يطلق صفيرا حادا في المساء، وأحيانا صرخات، ويشير إلى "صفية" ذات الشعر الأصفر والعيون الخضراء قائلا إنها أخت "عازر". تأخذه أمه بالقوة وتدخله البيت خائفة أن يسقط من البلكونة، لأنه كان يجن عندما تمر "صفية" في الشارع. ذات يوم طرق باب جدتي. شهقت عندما رأته، وضربت على صدرها: "لا حول ولا قوة إلا بالله". كان "سامي" يقف أمام الباب والدم يسيل من فمه، ويحكي بأصوات مدغومة، حكاية لم تعرفها جدتي إلا بعد ذلك. كان يحكي لجدتي بلسان ممزق من شظى الزجاج أن تخبر "فؤاد" عندما يعود أنه ذبح "عازر" وشرب من دمه. جاءت أمه يومها وقالت معتذرة لجدتي إنه حطم برطمان الفلفل وأكل الزجاج.

أحضرت "أم نوسة" النجار ومسمر الشبابيك وباب الشرفة. لم يعد أحد يراه بعد ذلك في الشارع، ولا في الشرفة. لكننا رأينا "صفية" عدة مرات تقف أمام باب "أم نوسة" وتقول غاضبة:

"ابنك مجنون سأبلغ عنه مستشفى المجانين."

لم يكن أحد يعرف ما الذي يفعله "سامي" لـ "صفية". تهدئها "أم نوسة"، وتطيب خاطرها. تتندى عيون "صفية" الخضراء بالدموع ويزداد وجهها جمالا وتعود إلى بيتها. بعد عدة أيام لم يجدوا في الغية أي حمامة. كان "سامي" يجلس على السطح

ويتحدث مع "عازر": "سوف أشرب من دمك." قالـت "أم نوسـة" لجدتي وهي تبكي إنها لم تعد تتحمل، خائفة على البنات، إنه يقـول إن "عازر" مثل دراكولا لا يموت، وهو يعيش على الدم. ذات مساء وقفت سيارة المستشفى أمام باب "أم نوسة" وشـاهد النـاس ثلاثـة رجال أشداء يقودون "سامي" خارج البيت.

أغرمت في تلك الفترة بمتابعة طيران الحمام. كـان التنـوع والحركات والصور التي يشكلها الحمام في السماء يشدني كل لحظة إلى شكل مختلف، يخيل إلى أنه يتبع قانونا خاصا، يمكن أن أكتشفه لو أمعنت النظر، حتى اكتشفت جدتي احمرار جفني. لم أذهب إلـى المدرسة عدة أيام لكن جفوني ظلت على حالها. كان لابد من زيارة طبيب العيون. لبست ملابس ثقيلة وأصطحبتني خالتي "سميرة" إلى عيادة طبيب من أقارب جدي، لكن القطرة التي وصفها لي كانـت تحرق أغشية العين. أغمضت عيني محاولا استعادة طيران الحمـام في المغرب، أو صف من الحشرات يصعد فوق سور الحديقة فـي سرب منتظم، لمعان الضوء على سياج الشرفة ووجه باسم لخـالتي "سميرة".

لم ينته الالتهاب. كان علينا أن نغير الطبيب. أصبح الخـوف من العمى أمرا واقعا الآن. قال الطبيب الجديد، بعـد أن أعطـاني مرهما، إنني لا يجب أن أخلع النظارة مطلقا، وابتسم قائلا: "حتـى أثناء النوم". قضيت وقتا طويلا مغمض العينين. هذه المرة لم أكـن خائفا، وأحببت أن أعيش "بروفة" العمى كنوع من التـدريب علـى المستقبل. اعترفت لجدتي أن متابعتي لطيران المغرب هـو سـبب التهاب عيني. أصعب ما في تلك الفترة كان منعي من القراءة. كان

t.me/qurssan

عليَّ استعادة القصص التي قرأتها واحدة بعد الأخرى، لكن أحداث حياتي كانت تدخل أحداث القصص ونعش خالي "فؤاد" يفسح لنفسه مكانا في كل قصة وكل النساء في القصص تستعير وجه "صفية".

في نهاية العام كانت درجاتي سيئة. بالإضافة إلى الفشل اتسعت الوحدة حولي والجو أصبح غائما طول الوقت. كنت في زيارة بيت "أم عايدة" المسيحية، ذات يوم، مع خالتي "سميرة"، واكتشفت ثروة من الروايات البوليسية في غرفة "سمير" ابنها.

تسكن "أم عايدة" في الطابق الثاني من بيت صغير على ناصية شارع "المؤيد". شقة صغيرة، حجرتان وصالة أقرب إلى الطرقة. تتصدرها ماكينة الخياطة. شماعات تحمل فساتين معلقة على الحائط كبشر يحتاجون إلى نفخة ليبعثوا. كل ما في البيت كان صغيرا، نظيفا، تفوح منه رائحة ملاءات مغسولة، ويضاء بضوء نيون يشبه نور النهار الباهت المضبب في أصباح الشتاء؛ كان المكان المناسب لتلك السيدة السمراء الضئيلة الحجم التي تربط شعرها بمنديل أسود، ولا ترتدي غير ملابس سوداء. خياطة ماهرة -كما تقول جدتي- يدها ميزان، كل زبائنها يعرفون ذلك ويتحملون حدتها وارتفاع أسعارها من أجل براعتها حتى أن نساء من غرب المدينة يجئن إليها متحملات جهامتها.

في الغرفة ذات الشرفة يعيش "سمير". يطيل شعره على عادة الشباب في تلك الأيام. لكنه لم يكن يختلط بشباب الحتة. قال خالي "محمود" إنه "انطوائي"، لا يتقبل مزاح الشباب. كنت أراه في البلكونة الضيقة، يفك المشابك عن الفوطة أو ينشر الطاقية التي

يكبس بها شعره. في ذلك اليوم الذي اصطحبت فيه خالتي "سميرة"، لكي تفصل "جاكت" أسود، بكت بصوت مسموع، وراحت المسيحية تطيب خاطرها. طلبت منى أن أدخل الغرفة عند "سمير". يومها شاهدت كمية روايات بوليسية لم أشاهدها أبدا، ومنذ ذلك اليوم توطدت علاقتي بـ"سمير". رحت أستعير منه كل فترة عددا من الروايات، معرضا عن إلحاح "محمد" أن يصحبني إلى أكشاك بيع الكتب أمام سينما مصر، لأكون لنفسي مجموعة خاصة. في الحقيقة كانت تجذبني جلسات "سمير" بسبب حكاياته التي لا تنتهى عن البنات.

عندما يسمع المرء حكاياته، لا يصدق أنه نفس الشاب النحيل الخجول الذي يفك المشابك عن الفوطة ويدخل مسرعا. يحكى عن مغامرات شيقة، لا تشك أبدا أنها مؤلفة، ففيها أسماء شوارع تعرفها، وبنات رأيتهن ذات يوم في الشارع، قريبات أو صديقات بنات الحتة. كانت حكاياته محكمة البناء، يجب الانتباه وأنت تسمعه، فكل تفصيلة لها قيمة وضرورة للوصول إلى الذروة التي يعد لها. كل حدث هو درجة في سلم للوصول إلى اللحظة المرتقبة، الساخنة، عندما تقف البنت أمامه في حوش بيت عمه في شارع السلطان مراد، أو في المقاعد الخلفية للسينما، أو في مقعد منعزل في الحديقة العامة. من حكايات "سمير" عرفت المراحل الطويلة والمغامرات الغريبة التي لا بد أن تحدث حتى يمكن لفتاة أن تجلس جواري في السينما. عيونه تلمع وهو يحكى حكاياته، كأنه يعيشها، الآن، أكثر مما عاشها فعلا. لم يكن يحكى عن ماض، بل عن أمر يحدث الآن، ويستعيد مشاعر ماتزال حية في بدنه. يمد يده إلى

t.me/qurssan

صدرها: "أنعم من الصابون". "تأوهاتهـا الـصغيرة!!" يتحـسر أن الزمن مضى، وأن ما حدث لم يبق منه غير الكلمات. لم أر شخصا مثله يتحسر على ضياع اللحظات الجميلة كأنه يتحسس الزمن أثناء زواله.

فتنته بالبنات، سحر يسري في حياتـه، تظـن أن خيالـه لا يتوقف عن متابعة الانطباعات التي تتلاشى، لأن الزمن لا بـد أن يتحرك إلى الأمام. رغم أنني اكتشفت بعد فترة أن ما يحكيـه مـن تأليفه، غير أنني صدقته وعشت معه حكاياته علـى أنهـا وقـائع، خاصة عندما بدأ سلسلة حكايات عن "صفية"، لم تنته إلا بزواجه.

كل مرة عندما أحمل إليه الروايات التي انتهيت من قراءتها، تنتظرني حلقة جديدة من حكايات "صفية". سلسلة طويلة من حكايات اكتشفت فيها جمالها النادر، وتعلمت حبها، رغم أنني لم أكـن قـد جاوزت الثانية عشرة. يحكي أنه قابلها أمس على ناصـية شـارع الفاتح، وتمشى معها في شارع البحر. يحكى عن طريقتها في الكلام والمشي، ولون ملابسها، وملمس يدها، والندى الذي يخضب بـاطن الكف، وصوتها المبحوح اللين، وهي توقفه عن الاستمرار لأنها لم تعد تتحمل. يحكى أنه قابلها أمام "جنة الفواكه"، أو يحكى -بطريقة الروايات البوليسية- عن مغامرة في شارع الخان، لأنه ظن أن أحد شباب الشارع يطاردهما. انتظرت طويلا ذلك اليوم -أقاوم خوفي- الذي ستسلم فيه "صفية" نفسها لـ"سمير". لم أعرف نهاية السلسلة، لأنه انشغل في تلك الفترة بأمر الخطوبة، وانشغلت بمتابعة قـصة "صفية" على الأرض.

بشكل مفاجئ تزوج "سمير" من فتاة طويلة وجميلة كنا نراها في الشرفة بشعرها البني الطويل وملامحها المسمسمة. في المساء عندما تنزل بصحبته معلقة ذراعها على ذراعه، تلفت الأنظار بطولها وجمالها. كانت تلك الزيجة تتويجا لكل حكاياته. من كل البنات اللاتي أحبهن "سمير" كانت تلك هي الجنية الساحرة التي وقع في أسرها. بعد ذلك بفترة عندما سألته لماذا لم يتزوج "صفية" قال إنها لا تصلح للزواج. لا يصح أن يتزوج المرء فتاة عبث معها.

بعد فترة حملت زوجته وكنا نندهش من أن هذا البيت الصغير، يمكن أن يتسع للأسرة، لكن الحمل لم يكتمل، والعروس الجميلة بدأت تظهر في الشرفة وقد عصبت رأسها بمنديل أسود، تنشر الغسيل وتدخل، و"سمير" بشعره الطويل، الذي لم يعد يكويه بالطاقية، بدا كأنه يعيش في غياهب مظلمة، شاردا يعود من العمل في الظهيرة، يحمل الملفات وجبهته متغضنة وبسمة ذابلة على شفتيه كأنه لا يزال يحلم بالبنات.

التهديد بالعمى أصبح مملا كقطعة محفوظات، لكنه استمر يثير في جسدي قشعريرة غريبة، حتى الآن، هنا، بعد ذلك بأكثر من ثلاثين عاما، وبعد أن أجريت عملية تصحيح البصر بالليزر، لم تفارقني هذه الرعشة الغريبة كلما فكرت في العمى. أحيانا أصحو من النوم. أفتح عيني ولا أشاهد شيئا غير الظلام، وفي أخيلة ما قبل اليقظة التامة، أظن أن وقت العمى قد جاء. في ذلك الزمن البعيد كنت أعد نفسي لهذا اليوم بترتيب ألغاز سأستثمرها عندما يحين

t.me/qurssan

الوقت. فتشت في تفاصيل صغيرة باحثا عن ألغاز. كنت أسخّر كل ما يقع تحت يدي من أجل هذا اليوم.

ذات صباح استيقظت مبكرا لأجمع أوراق التوت. لمحت "أم عايدة" تخرج من باب البيت وتغلق الباب وراءها ببطء، وبدقة كعادتها. نظرَت إلى الشرفة واستقام جسدها القصير، وحبكت الإيشارب الأسود حول رأسها. لم يرها أحد، طول تلك السنين، ترتدي غير جيب أسود وبلوزة سوداء، وفي الشتاء تضع على كتفها شالا أسود، رغم الفساتين المبهجة التي صممتها. الصمت أبيض مثل الضباب، وأصوات نافذة تفتح، وشخص يسكب ماء من فوق السطح. وقفتْ وحيدة. تتأمل، البرك والأوحال التي تركها مطر اليوم السابق، وتتمهل لحظات. ترفع بصرها إلى الطريق، كأنها تنظر إلى قطعة من القماش الخام، ترى فيها الفستان قبل أن تمسك المقص.

هبطت من فوق سور الجنينة. تابعت المسيحية حتى انحرفت يمينا في شارع الحلو. كان منظرها غريبا وحيدة في الشارع الخالي، وظننت أنني وقعت على تفصيلة في أحد الألغاز. كانت جدتي تجلس على الكنبة، تتمتم ببقايا أدعية ما بعد صلاة الصبح، وقبل أن أتعرض لاستجواب عما كنت أفعل في هذا الوقت المبكر، قلت لها إنني رأيت المسيحية تتجه إلى شارع الحلو. أومأت برأسها وراحت تتابع التسبيح على عقل الأصابع. سألتها:

"أين تذهب المسيحية في هذا الوقت من الصباح.."

"إلى الكنيسة، الله يكون في عونها."

قالت جدتي إنها تحملت الكثير، تعبت كثيرا كي تربي البنت والولد، لكن ما قسم ظهرها أن "عايدة" بنتها أحرقت نفسها في الحمام. طلبت منها أن تحكي لي قصة "عايدة"، لكنها كانت متعبة، فقالت باختصار، إنها تزوجت من رجل مريض، كان يحرق جسدها بالشمع، بعد أن صدق شائعات عن أنها حافظت، بعد زواجها، على علاقة بابن الجيران.

شغلني ارتداء المسيحية لملابس سوداء وقتا طويلا. كنت أتخيل أن الكوابيس يمكن أن تهاجم، كطيور جارحة، من ينام في الملابس السوداء. كثيرا ما سألت جدتي عن سر تلك الملابس، فتقول إنها لا تعرف، متهربة من تلك الإجابة التي قالتها ببساطة صباح يوم المطر. لكني ظننت -بأثر ذلك الخيال الصبياني الذي تشبع بالروايات البوليسية ويرى أسرارا غامضة خلف التفاصيل الصغيرة- أن هناك سرا خطيرا وغامضا خلف حزن المسيحية، حتى أنني أحببت يوم المطر عندما عرفت أنها حزينة من أجل ابنتها التي ماتت محترقة في الحمام. كنت أتمنى أن يكون الأمر، مثل القصص، أكثر إثارة؛ كأن تكون قد قتلت زوجها وتلبس ملابس الحداد تمويها كي لا تكتشف الجريمة، أو تآمرت مع أخيها على قتل زوجته لكنه مات قبل أن تتم الجريمة، أو تطاردها أشباح تطلب بالثأر، وترتدي الملابس السوداء لتخيف الأشباح كما أوصاها قس الكنيسة، فلا مانع أن تؤثر تلك الملابس في الأشباح كما تؤثر الجلابيب الحمراء في مرض الحصبة. كنت أتخيل أن هناك سرا أكبر من الكلام العادي الذي قالته جدتي، خاصة أن شخصية المسيحية الغامضة، لا تقلّ عن أي شخصية في الروايات التي

t.me/qurssan

أستعيرها من "سمير" ابنها. لا بد أن يكون هناك سر أكبر مما تقول جدتي، حزن ثقيل، أو مخاوف لا يمكن البرء منها، وجرائم غامضة لن تكتشف أبدا، وكنت انتظر أن أكتشف ذات يوم سرا أكبر من حكاية جدتي التي لم تستطع أن تكون مقنعة بالنسبة لي كمبرر لهذا الحزن المستديم.

في الظهيرة سمعت جدتي تقلب البن في "الكنكة". رائحة المطر لا زالت في الجو. خرجت من غرفة المكتبة، رأيت المسيحية تجلس على الكنبة بجوارها، وتتحدث عن أنها تعبت. توقفت جدتي عن تقليب البن وقالت:

"اتركي المواجع نائمة..."

"كل ليلة تجيء إليّ في المنام، كل يوم أذهب إلى الكنيسة ليفسر لي أبونا الحلم، أخاف من النوم".

كانت متعبة وقد شَقِيَت حتى زوجَتْه، "لكن المرأة السهتانة كل يوم تسحبه وتمضي به إلى بيت أمها". حلت الإيشارب عن رأسها. وجهها داكن السمرة، شعرها الأكرت المخضب بالشعر الأبيض، مربوط على شكل كعكة. الصرامة الغريبة في وجهها قاسية كأنها من الصخر. اشتكت أنها تذهب كل يوم إلى السوق مثل خادمات البيوت، "أعود لأنظف البيت وأطبخ، حتى تقوم الهانم من السرير." لم تعد تستطيع العمل، تخطئ أخطاء لا تخطئها خياطة "عويلة". رجّعت كثيرا من القماش لأصحابه، وتساءلت: كيف يعيش إن فقدت عملي.

كان العمل حياتها، هو ما يثبّت عقلها ويمنحها السكينة:

"عملي والرب هما ما بقي لي، العمل يتخلى عني، ولم يبق لي غير الرب."

مالت تجاه جدتي وهمست:

"خائفة يا "أم نبيل"، خائفة، من الظلمات التي تعيش فيها عايدة."

صبت الفنجان وهي تقول:

"ظروف "عايدة" كانت صعبة، اطلبي لها الرحمة."

حكت أنها منذ يومين أخذت دور برد. دخل "سمير" عليها، يحمل في يده كوبا من الشاي بالليمون. جلس على طرف السرير وقال: "سامحيني يا ماما سوف نذهب لنعيش في بيت حماتي، الشقة ضيقة ولا تتحملنا."

قالت إنها لن تمنعه من الذهاب ليعيش في بيت حماته. ستفترض أنها لم تحمله في بطنها، لم تشق عليه منذ أن مات أبوه. لن تمنعه. كانت تنظر بذهول إلى وجه جدتي، وبدا لي أنها فقدت عقلها، وهي تقول:

"سيمشي من هنا، وتنفرد بي "عايدة". الآن تأتي في الأحلام. بعد أن يترك الشقة؛ ستجيء في الحقيقة. سأكون مكفية على الماكينة وأجدها تدخل والنار مشتعلة في جسدها."

***

t.me/qurssan

سألت خالي "محمود":

"لماذا لا تتزوج "صفية"؟"

كان ينزّل الكتب من فوق رفوف المكتبة.

قلت:

"أعرف لم لا تتزوجها."

وضع صف الكتب على كرسي، ومسح بقطعة قماش الرف العلوي للمكتبة. وتصفح أحد المجلدات، حتى ظننت أنه لم يسمعني.

بعد لحظات نظر إلي وعدل نظارته وقال:

"لماذا؟"

"لأنها يهودية"

كان لايزال يتصفح أحد الكتب:

"من قال إنها يهودية؟"

"العيال في الشارع."

"لا تصدقهم."

"هل هي مسيحية..؟"

"لا، إنها مسلمة."

في تلك اللحظة شغلت جدتي قرآن الجمعة من الراديو الترانزستور في غرفتها. بدا كأنه مستغرق في تتبع الأصوات الصادرة عن البيت، ثم عاد يمسح التراب عن الكتب. لم أصدقه. لم أصدق أن "صفية" مسلمه كما قال. فكرت أنه لا يهتم بالإجابة عليّ بطريقة جادة، وصدقت الحكايات، التي يحكيها الأولاد في الشارع عن أنها يهودية، لأن البيت الذي تسكنه، منقوش على بابه نخلتان يميل جريدهما تجاه الآخر، وهو رمز اليهود مثلما الصليب رمز المسيحيين، والهلال رمز المسلمين.

"صفية" أجمل ما رأيت في حياتي. حتى الآن، بعد تلك السنوات، أحيانا أصحو محاطا بذلك الصمت الثقيل لأصباح المدن الخليجية، على يقين بأنها لم تفارقني طول الليل. أثناء الحزن الهش الذي يصيبني في الصباح، ويتبدد ببطء عندما انشغل بإعداد حقيبتي وأبدأ في ترتيب أعمال اليوم، أشعر بذلك الوجع القديم للحب، وأتمنى أن أترك كل شيء، وأعود لأبحث عن "صفية"، التي ترشدني أحلامي أنها تعيش في شقة في الطابق الثاني لبيت قديم على طراز مساكن الستينيات ذات الخطوط المستقيمة الحادة والشرفات المرشوشة بأسمنت على شكل حبيبات خشنة.

يظهر الشارع واضحا في الأحلام. هناك وكالة قديمة في أوله، وبعد شارعين يمر النيل باتساع كبير. كانت تلك المدينة ذات يوم مرفأ لنقل البضائع إلى الموانئ المطلة على البحر المتوسط. أعرف أنني لو تركت عملي في الخليج وعدت ومشيت في شوارع تلك المدينة، ستقودني قدماي إلى بيتها. في بعض الأحلام أراها تنشر الغسيل في الليل، وحدها، في البلكونة، يحيطها ضوء أصفر

t.me/qurssan

للمبة ضعيفة. لا تزال جادة، تزم شفتيها مستغرقة، وأشم رائحة نباتات. تحت تأثير ثقل هذه الأحلام، تصبح الحياة هشة وباهتة. وفي تلك اللحظات، يفقد كل شيء معناه، لا معني لأن أكون مهندسا بارزا في إحدى الشركات الكبيرة للإنشاءات التي تعمل تقريبا في كل مدن الخليج، وأن أجمع قدرا كبيرا من الثروة، لا معنى لهذه الدوامة من العمل، خاصة أنه لا أحد ينتظرني هناك في مدينتي غير خالي "محمود".

في أيام أخرى أصحو من النوم وقد رأيتها في شرفة البيت الخشبي في شارع شريف في العصر، تبتسم، تلك البسمة التي تمنح وجهها الجاد شرودا فتبدو منفصلة عن الحياة. تلم الغسيل ساهمة، أو تكنس الرصيف، وترشه بالماء، في أيام الصيف، فتفوح رائحة تراب ونباتات ناشفة. في تلك الأيام الصعبة يرتبك تفكيري، فلا يبدو أنني كنت أحلم، كأن لحظة من الماضي أفلتت من الزمن وعادت بكل كثافتها. أقوم من النوم مرهقا، وقد عاد إليّ شارع شريف في طنطا بكل كثافته.

كلما أرسلتني جدتي لأشتري شيئا من دكان "صبحي" البقال. أمر على بيت "صفية"، ببابه المغلق ونافذته المفتوحة التي ترتمي عليها مخدات وألحفة قديمة، وأتأمل النخلتين على الباب. وقفت بقربها، ذات يوم كانت تشتري شيئا من "صبحي" البقال. اقتربت لأول مرة من جمالها. كان فوق تحملي. جمالا مؤلما. لم أجرب بعد ذلك هذا الوجع. تعلقت بها منذ ذلك الوقت. حلمت بها عدة مرات. رأيتها في بطلات الروايات التي أقرأها. كانت عيونها خضراء وشعرها أصفر مربوط بأستك وأنفها دقيق مرتفع قليلا، ووجهها

باسم جاد في نفس الوقت، ينتهي بطابع حُسن. لا يمكن تحمل الجمال عندما يطيل المرء النظر إلى وجه "صفيه". كانت ترتدي بلوفر برقبة وجيب كاروهات حمراء وسوداء، وشراب أسود، وحذاء عليه آثار وحل الطريق. كنت صغيرا وعذبني قربها بطريقة غير قادر على فهمها حتى الآن. أثّر جمالها في جسدي الصغير بشكل لم أبرأ منه أبدا، وخضت في وقت مبكر تجربة أن الجمال مروع. سمعت نبرة صوتها الهامس الجاد عندما طلبت: "زهرة غسيل"، من "صبحي" البقال. قال وهو ينظر إليها باسما: "زهرة للفل"، لكنها لم تبتسم. أخذت "الزهرة" ومشت.

لمحت "عبده الأصيل"، يطير بالدراجة، اقترب منها قبل أن تصل إلى بيتها. وضعت حقيبة السوق أمام الباب. أنزل "عبده" مساند الدراجة. وقفت "صفية"، ووقف يتحدث معها. اندهشت كيف يتحدث معها بهذه السهولة، وكيف تقف كل ذلك الوقت في الشارع معه، تستمع إليه. تنظر إلى الأرض، تمد طرف حذائها وتحكه بحجارة الرصيف. منذ ذلك الوقت اعتبرته أكثر جرأة من خالي "محمود". وعشت حسا مؤلما بالغيرة. كانت بعيده كنجم في السماء، لكنه يلمسها بسهولة.

قلت لجدتي:

""عبده الأصيل" سيتزوج "صفية""

قالت:

"من عرفك؟"

t.me/qurssan

"عبده الأصيل" طويل، أسمر اللون، يطلق لحيته، وشعره الطويل ناعم يصل إلى ياقة قميصه المنشاة، أصابعه ملوثه بحبر الطباعة. يعمل في مطبعة" الأصيل" في شارع الحلو، وتقول جدتي إنه تَرَبّي في بيت "الأصيل" منذ أن كان صغيرا، لكنه ليس من عائلة "الأصيل"، حمل اسمهم فقط. لم يكن أحد يعرف أصله. سألتها: "يعني وجدوه على باب الجامع؟" نظرت بدهشة وقالت:

"لا أعرف، ربما من بلد أرياف".

ذات يوم قال خالي "محمود" بعصبية:

"ما الذي يهمك في دينها".

"لأنها ستدخل النار."

نظر إليّ باستغراب ثم قال:

"لا تخف، ستدخل الجنة..."

نظرت إليه غاضبا لأنه يسخر مني، وخرجت من غرفته بسرعة. بعد قليل ناداني، وقال لي: "أمسح نظارتك"، واصطحبني لنشتري الجرائد. سرنا بامتداد الشارع الساكن، في صباح يوم الجمعة، وانحرفنا في شارع سعيد. في ميدان كتشنر وقف يتحدث مع بائعة الجرائد، وأثناء عودتنا سألني عما يحزنني، شعرت بأن قلبي غير قادر على تحمل المزيد فقلت بصوت خافت:

"أحب "صفية".."

توقف عن السير مبتسما للحظة، ثم دفعني دفعة خفيفة في كتفي.

"أرغب أن تكون مسلمة حتى لا تدخل النار..."

لم يكن لي من أمل في لقائها في غير العالم الآخر، هناك، سوف أبحث في جنبات الجنة حتى أعثر عليها.

قال جادا:

"من أدراك أنك ستدخل الجنة؟"

"جدتي...."

ظل صامتا، فقلت:

"سيدنا "محمد" سيشفع لنا يوم القيامة، وشفاعته ستدخلنا الجنة."

"جدتك تسهل الحياة."

كان يتصفح عناوين الجريدة أثناء المشي، قال مبتسما:

"يمكن أن تدخل النار أنت و"صفية"."

كانت أجابته منغصة. فكرت طويلا في الجنة والنار وفي "صفية". كنت أراها في أحلامي، تمشي فوق سور الجنينة، غير عابئة بالأشواك، تحيط بقدميها زهور السياج البنفسجية. تمشي باتزان كأنها تمشي على سلك رفيع، تفرد ذراعيها، تحافظ على توازنها، حتى أوشك قلبي على التوقف خائفا أن تقع في النار. قمت من النوم مرهقا، خائفا أن تكون قد وقعت. ذات يوم قمت باكيا لأنني سمعت فحيح النار وشممت رائحة الدخان.

t.me/qurssan

"عبده الأصيل" يقف على الناصية أمام النافذة المغلقة لبيت "صفية". في صباح اليوم التالي، كان يقف مستندا على الجدار المواجه للبيت، لا يرفع عينه عن الشرفة المغلقة. في طريقي إلى المدرسة لمحت عم "فتحي الأصيل" قادما، باتجاهه، ورأيتهما يتحدثان، وسار "عبده" خافض الرأس بجواره. في الليلة التالية وقف "عبده الأصيل" نفس وقفته السابقة. في الصباح رأيناه في الشارع. في هذا اليوم لم يأت عم فتحي لاصطحابه إلى العمل، وفي الظهيرة أثناء عودتنا من المدرسة كان لايزال هناك. وقفنا أمامه قليلا، لم يرنا، قذف أحدنا طوبة تجاهه. نظر إلينا، وهم أن يجري وراءنا، فتفرقنا بسرعة.

قالت جدتي كان الله في عون الناس، سخر لكل إنسان شيطان وملاك، من يتبع الشيطان يغرق في الهم. كانت "صفية" قد قالت له: إذا كلمتني مرة أخرى سوف أحرق وجهك بماء النار، وقال لها إذا لم تكلميني سوف أحرق وجهك بماء النار. ظل "عبده الأصيل" أمام بيت "صفية" خمسة أيام بلياليها، وفي اليوم الذي هبت فيه الريح المحملة بالأتربة من الصحراء وأصبحت الشمس قرصا أحمر بلا أشعة، توجه إلى البيت مرهقا مثل شبح وظل يطرق الباب. لم يكن هناك أحد. كان النوم قد خطفه في الوقت الذي تسللت فيه "صفية" وأمها وخرجتا دون أن يراهما.

عاد صامتا إلى شارع الحلو. جهز مرتبة لينام عليها في المكتب الصغير في مدخل المطبعة. لم يرغب أن يرى الشارع دون أن تكون "صفية" فيه. ترك شعره يطول حتى وصل إلى ظهره ولحيته إلى صدره. ظل يعمل في طبع كروت الأفراح وإعلانات

الأفلام القديمة بنفس الدقة التي كان يعمل بها، ولم نره في الشارع، بعدما أُغلق بيت "صفية" ولم يعد أحد يسكنه. كنا نذهب إلى المطبعة لنراه بشعره الطويل ولحيته الطويلة، يشبه إنسان الغابة. أخذ "عبده الأصيل" وقتا طويلا قبل أن يفيق من حبه. عندما أفاق، كانت الدنيا قد تغيرت، الحرب انتهت وبدأ الناس يسافرون إلى بلاد الخليج، وبعد أن كان من المستحيل أن يترك المطبعة التي صار جزءا منها، إلا أنه في نهاية السبعينيات، سافر إلى العراق، وفي ظني، كان قد سافر ليبحث عن "صفية" في الدنيا الواسعة.

كنت على وشك السفر في منتصف الثمانينيات عندما أخبرني خالي "محمود" بأن "عبده الأصيل" عاد من الخارج وقد اختفت ملامحه تحت ندب من جروح السكاكين. لم يعرفه الكثير من أهل الحتة، عندها يقول بدهشة: "أنا "عبده الأصيل"". ينظر إليه الناس ولا يصدقونه. يُخرِج من محفظته، صورة قديمة له، بشعره الطويل ولحيته الطويلة، تذكر الناس بملامح الشاب الأسمر الذي كان يطبع كروت الأفراح في مطبعة "الأصيل".

***

t.me/qurssan

في ظهيرات الصيف، يسكن البيت، ويُسمع أزيز الحشرات في الجنينة. تتسلل خالتي "سميرة" إلى غرفة الجلوس، تشيش النوافذ، وفي يدها منشة الذباب، وأحد الروايات العالمية أو مجلة الكواكب. ترقد على الكنبة في قميص منزلي عاري الكتفين. شعرها الأسود ملفوف حول رأسها، ومثبت بالبنس. تقرأ قليلا ثم تغفو. أراقبها أثناء نومها. حاجباها معقودان كأنها تفكر في مسألة صعبة.

تفوح من تلك الظهيرات رائحة عطور نباتية، تستدعي، حتى الآن، خالتي "سميرة". ما من مرة اقتربت منها، إلا وشممت تلك الرائحة، فاستقر في وجداني أنها كانت في تلك الفترة محاطة بهالة من العطور. لا أصدر أي صوت. أخلع نظارتي، مخالفا تعليمات جدتي المشددة، وتحذيرها بأنني إن خلعت النظارة سيتلاشي النور من عيني. أترك نفسي لغمامة من الصور. أنصت إلى صوت الحشرات في الجنينة، ورنين الأواني في المطبخ، أو ذلك الطنين البعيد الغامض الذي أسميته فيما بعد "صوت المدينة". تفتح عينيها، تبتسم، فأندس بجوارها.

سألتها من أين تشترى تلك العطور. ابتسمت: "أعجبتك؟". طوحت رأسي. قالت إنها عطور فرنسية تحصل عليها من إحدى صديقاتها. أعرف أنها تشتريها من "كريمة صبحي"، (أصبحت فيما بعد زوجة أبي) يسافر أخوها الكبير إلى بيروت، وكان هذا يثير دهشة خالتي "سميرة" التي سمعتها تسأل ذات يوم:

"كيف يسافر... والبلد في حرب؟"

قالت "كريمة":

"يساعده أصحابه الكبار...."

"كريمة صبحي" نحيلة سمراء، شعرها مقصوص حتى الكتف، ترتدي فستانا، أقصر كثيرا من فساتين خالتي "سميرة"، وفخذاها لهما لمعة خاصة. كانت تجلسني إلى جانبها وتضمني إليها.

تقول خالتي:

"الولد كبر."

"كبر؟ صحيح؟ أشوف..."

وتطاردني في البيت، موحية بأنها سوف تفك "الشورت"، لتعرف ما إذا كنت قد كبرت. تجري خالتي وراءها لتمنعها. كانتا تضحكان. ضحك خالتي "سميرة" رائق. تضيق عيناها وتتندى بطبقة شفافة من الدمع.

اشتركت في فريق الجمباز في المدرسة الإعدادية. وفي البيت تتدرب على الحركات التي تعلمتها. لم توافق جدتي على أن تستمر في الجمباز. وقتها تعليم البنات كان حديثا. تغلق على نفسها غرفتها. ثم تقف على رأسها. وتبقى في هذا الوضع فترة طويلة. تخيلت أن ذلك الوضع المقلوب هو ما يمنحها البريق والرغبة في المرح. هي التي تشترى احتياجات البيت من "درب الأثر". وتصر على قضاء كل المشاوير، ولا تتعب، كما تقول جدتي.

t.me/qurssan

عندما استدعى "فؤاد" إلى الجيش، سافر في ليلة شتوية. لم يسمح لأحد أن يصحبه إلى المحطة. سافر في القطار الحربي الذي يصل الإسكندرية في الفجر. تلك أتعس ليلة تقضيها "سميرة" في حياتها. راقبت حركته في البيت، من فراشها، حتى شعرت به يحمل الحقيبة ويمشي في الصالة، ولم تتحمل صوت الباب ينغلق وراءه. لم تنم لحظة واحدة في تلك الليلة بعد أن أصبح البيت فارغا وبلا معنى.

أثارت أول أجازاته عاصفة في البيت. لم تبق "سميرة" في مكان واحد. أحاطته كأنه جزء منها؛ فقد أمضت خمسة وأربعين يوما، يتأكد يقينها كل يوم، بأنه لن يعود. كانت الأجازة قصيرة؛ "٧٢ ساعة". لأول مرة تنتبه أن الأيام يمكن أن تلغى، ويبقى مقياس الساعات صالحا لوصف الزمن. اندهشت من وفرة الزمن إذا حسب بالساعات. غسلت ملابسه العسكرية وكوتها ونظمتها في الحقيبة. يوم الخميس ظلت جالسة حتى الواحدة بعد منتصف الليل في الشرفة إلى أن عاد من الخارج. كان شكله مختلفا، في تلك الأجازة، بعد ذلك اعتدنا عليه. حلاقة شعره الأسمر الطويل الذي كانت تميل خصلة منه على جبهته مهما أرجعها إلى الوراء، جعلته غريبا إلى حد ما، لكنها زادت من بريق عينيه ومن استدارة الحدقات وطول الأنف. تحدثت معه حتى الفجر. حكت له كل شيء عن البيت. قلق أمها من تأخر خطابات "نبيل"، ومن تعثر "محمود" في الدراسة. "تكتم حزنها"، قالت: "أخاف من صمتها... لكنك تعرف ماما..". طلبت منه أن يحكي شيئا عن الجيش. ابتسم قائلا: "أسرار عسكرية". ثم برقت عيناه وهب واقفا: "جئت لك بحجر غريب".

دخل إلى غرفته وعاد وفي يده حجر داكن اللون ناعم الملمس عليه نقر كأنها عيون من زجاج أحمر. قال: "حجر عمره آلاف السنين". كان سعيدا باستعادة مادة الجيولوجيا، وقال إن الأحجار هي تاريخ العالم. كانت تنصت إليه في تلك الليلة ولا تريد أن يأتي الصبح. سألته عما يقلقه. قال: "لا شيء"، وكاد أن يتكلم، لكنه صمت فجأة وقال مرة أخرى:

"لا شيء"

بعد موته تغيرت تماما. كانت تقضى أغلب الوقت نائمة. لابد أنها حاولت أن تنزع نفسها من ذلك الوهن بلا جدوى. تعبر الصالة، مثل طيف، شعرها ملفوف ومربوط بمنديل أزرق، في طريقها إلى الحمام. في ظلمات غرفتها قوة غامضة تشدها، فلا تبقى معنا إلا أثناء الطعام. لا بد أنها لم تكن تستوعب طقوس الصباح، عندما تسمع صوت الباب، وتشم رائحة الكمون تفوح من "كسرولة" الفول التي تحملها "أم وداد". لم تكن تصدق أن عربة الفول مازالت هناك على ناصية شارع الناصر، وأننا مازلنا نذهب إلى المدرسة كل صباح. لا بد أنها لم تكن تصدق أن الحياة مازالت هناك. الحناطير في شارع البحر، والمحلات مفتوحة في "درب الأثر". لم تخرج حتى للقاء صديقاتها، فكانت جدتي تجلس معهن قليلا في غرفة الجلوس، قبل أن يغادرن البيت آسفات. لا بد أنها مثلنا استغربت نفسها، وشعرت بأن شخصا آخر ولد فيها في تلك الفترة، هناك تكوّن في ظلمات غرفتها التي كانت أول مكان في البيت تطوله شمس الصباح، وتنشر غلالة ضوء كضباب أزرق فوق الأثاث.

t.me/qurssan

اكتشفوا ذات يوم أن البيت لم يعد فيـــه توابـــل. "أم وداد" لا تعرف القراءة والكتابة ولا أسماء الشوارع. كان على "ســميرة" أن تخرج من غرفتها لتشترى احتياجات البيت من "درب الأثر". بحثت في دولابها لم تجد ملابس سوداء، عبرت الصالة إلى دولاب أمهــا وارتدت عباءة. عندما رأتها جدتي قالت غاضبة: "اخلعى الهلاهيــل وارجعي مكانك." وأمرت "أم وداد" أن تذهب إلى "صبحى" البقــال لتشتري كمون وفلفل.

في المساء اصطحبتني إلى بيت المــسيحية، لتفــصل لهــا "جاكت" أسود. أخذتها "أم عايدة" في حضنها. حضرت الدموع التي انحبست طويلا. قالت المسيحية: "فؤاد" شهيد. مقام الشهداء عــال. إنهم نور في السماء، انظري إلى السماء في الليل إنه هناك. نحــن مثل الدود في الأرض، لا، لا، الشهداء لا يستحقون الحزن إنهم في ملكوت الرب، يستحقون الفرح".

كان الكلام طيبا. يومها وقفت "سميرة" أمام المسيحية التـــي مدت المازورة حول جسدها، وقالت: "لم يعد فيــك جــسم، حــرام عليك. انظري إلى أمك من يتحمل حملها؟" كانـــت تقــيس الجــسد النحيل ولا تصدق ما حدث للبنت الصغيرة في عشرين يوما. بعــد عدة أيام جاءت "أم عايدة" إلى البيت وفي يــدها "جاكـــت" أســود، جربته خالتي "سميرة" في الصالة، ودارت حولها "أم عايدة" وقالت: "أصبحت هواء، لا، لا، لا يصح منك".

في الأصباح الباردة الجافة لذلك العام، كنت أستيقظ مبكــرا متخيلا أنني أول من استيقظ في البيت. في بعض الأيام عندما أفتح

باب غرفة الجلوس، أرى خالتي "سميرة" جالسة على كرسي في الشرفة حافية القدمين، ترتدي ذلك الجاكت الأسود. لم أكن أعرف من أين جاءت في تلك الساعة المبكرة. تبدو مرهقة قليلا، ومصرة على أمر ما. تخلع "الجاكت" وتلقيه على ظهر أحد الكراسي وتفوح منه رائحة تراب أكثر كثافة من تلك الرائحة التي فاحت منه بعد أكثر من عشر سنوات، عندما شاهدته معلقا وحده في دولابها، في ذلك اليوم الذي كنت أساعد فيه خالي "محمود" في وضع السم للفئران التي انتشرت في البيت. كان "الجاكت" هو قطعة الملابس الوحيدة في دولابها. اهتز عندما فتحت الدولاب، وجاءت إليَّ تلك الأصباح التي كنت أراه فيها ملقى على ظهر الكرسي وخالتي "سميرة" تجلس شاردة ترتدي بلوز بكرانيش تحيط الرقبة، ثم تقوم وتتحرك في البيت بلا هدف. لم أكن أعرف إلى أين تذهب في هذا الوقت المبكر ولماذا تعود حائرة وغاضبة على هذا النحو.

سألتني "أفراح" إن كان الناس يبكون أثناء النوم، ثم قالت هامسة: "خالتي "سميرة" تبكي وهي نائمة". بدأت أنتبه لوهنها، ووجهها الأصفر، وعيونها اللامعة التي تتندى دائما بالدمع. كنت أفكر أن خالتي "سميرة" يمكن أن تكون أمي. في تلك الأيام لم أكن أعرف كيف أداري ارتباطي بها. سألتها ذات يوم إن كنت أستطيع أن أنام معها. كانت تربط شعرها في الصباح، ورائحة عطر خافتة تفوح منها. انتبه وجهها ولمحت طيف غضب. زمت شفتيها وقالت:

"اجري جهز شنطة المدرسة."

t.me/qurssan

جريت بسرعة وأنا أكرهها، وحملت حقيبتي ولحقت بـ"أفراح" قبل أن تخرج من الباب. كرهتها طول اليوم. لكني لم أستطع أن أقاوم ابتسامها ولمسها لشعري عندما عدت في الظهيرة من المدرسة. قادتني إلى غرفة الجلوس لتختار لي رواية جديدة.

كلما اقتربت الذكرى السنوية لموت "فؤاد" كان شيئا يرتعش في البيت. في التاسعة من صباح ٣٠ إبريل توقفت عربة الحنطور أمام البيت ونزلت الخالة "منيرة"، مرتدية زيها الأسود الكامل الفخم. بحثوا عن "سميرة" في البيت، لم يجدوها. توقفت الخالة "منيرة" قبل أن تتخطى الباب، ثم استدارت وأمرت سائق الحنطور أن يأخذها إلى القرافة. في الظهيرة عادت برفقة "سميرة".

في خريف ذلك العام، كانت جدتي لا تبقى في مكان واحد غير دقائق. تتحرك في البيت بلا توقف. تنام مفتوحة العينين، وتحدث نفسها وتدّعى أنه لم يبق لها غير أيام على وجه الأرض. لم أكن أعرف بالتحديد سبب التوتر. رفض "محمد" أن يحدثني عن الأمر، رغم يقيني بأنه يعرف كل شيء. ذات يوم سمعت جدتي تقول لخالي "محمود": "أريد أن أطمئن على أختك قبل موتي". عدل نظارته وقال بحسم: "على جثتي". كانت خالتي "سميرة" تقضي وقتا طويلا في بيت "أم عايدة". بعد عدة أيام بعد أن عادت من الخارج، قادتها جدتي إلى غرفة الجلوس وأغلقت الباب وراءهما. بعد دقائق فُتح الباب بعنف وخرجت تعدو. رأيتها تعبر الصالة، وشعرها يطير خلفها كأنها تهرب من حريق. في اليوم التالي لم تخرج من غرفتها، وعندما دخلت عليها أمها، صرخت: "سأحرق نفسي". في اليوم التالي جاءت الخالة "منيرة". هذه المرة كانت غاضبة، ووجهها

متورد وعابس. الإيشارب انزاح عن مقدمة شعرها الأبيض، في غمرة حديثها الطويل مع جدتي. قالت: "البنت تموت يا "فضيلة" مثل أختها.. حرام عليك... حرام خالص..." عرفنا، لأول مرة، أن أبي يريد أن يتزوج خالتي "سميرة". مالت الخالة "منيرة" وقالت: "سآخذ البنت عندي يومين، تسرى عن نفسها." حملت حقيبة صغيرة وركبت الحنطور بجوار خالتها في طريقها إلى شارع الفاتح.

توضأت جدتي في الضحى. لم يكن في الصالة غيرها. خالتي "سميرة" تنام منذ عدة أيام في منزل الخالة "منيرة". صوت "أفراح" بعيد تقلب في علب المكياج. نادتها جدتي: "لا تلعبي في أشياء خالتك". قالت: "أرتب لها علب المكياج". صمتت جدتي وقامت لتتوضأ مرة أخرى. انتظرت على الكنبة. في لحظات السكينة يصفو بصري ولا أشعر بذلك الضباب الذي يحيط بالأشياء، عندما أكون حزينا، حتى أنني افترضت بعد ذلك أن الأحزان تجعل المرء لا يرى، لو صفت روحه لأصبح حاد البصر. صحى "محمد" من النوم مهوش الشعر والبيجامة مفتوحة من على صدره. عابس الوجه، سألني عن كتاب الشطرنج. قلت: لم أره. قال كنت تلعب به أمس. أقسمت أنني لم ألمسه. كان ضوء الشمس يملأ الصالة وتوضأت جدتي لثالث مرة.

خفت أن أسألها عن سر الوضوء. صلت ركعتين في الضحى قبل آذان الجمعة بوقت طويل. سألتها:

"ليس وقت الظهر يا جدتي".

قالت بجهامة:

t.me/qurssan

"أعرف".

"لماذا تصلين؟"

نظرت إلي، كأنما تراجع نفسها مترددة أن تحدثني، وبعد صمت قصير، قالت:

"صلاة استخارة."

ثم قالت: "هات علبة الخياطة".

عرفت أن جلسة أخرى من جلسات رتق الملابس سوف تُغرق جدتي في ذلك الشرود الذي يعزلها عنا. تلكأت في الداخل. وعندما رجعت كانت تنظر من النافذة إلى الخلاء خلف البيت الذي نمت فيه حشائش طويلة وبوص تحلق فوقه العصافير باستمرار. مددت لها يدي بعلبة الخياطة. نظرت إليّ كأنها لا تعرفني، ثم ابتسمت. سألتها عن صلاة الاستخارة قبل أن تغرق في شرود رتق الملابس.

قالت إنها نوع من الصلاة يصليها المرء عندما يكون عاجزا عن الاختيار، عندما يتوه وتتشابه في نظره السبل، عندما يكون غير قادر على تمييز الطيب من الخبيث، عليه في تلك اللحظة أن يتوجه إلى الله لأنه هو الذي يعرف ما تقدم وما تأخر، وهو الذي يعرف الصالح لنا حتى لو كان يلبس لباس الضرر.

قالت جدتي يومها أشياء مبهرة عن المعرفة الكلية لله، عن قدرته على الإحاطة بنا، وإدراك السرائر، وقالت شيئا -ظل سحره يطاردني- عن النور الذي يضيء روح المرء ويبدد الهموم من

القلب كما يبدد نور الشمس ضباب الصباح، حتى أنني عندما دخلت فترة المراهقة وبدأت أقرأ في كتب العلم واهتز إيماني (في تلك الفترة التي يكون فيها التفكير في خلق الكون، وكتابة الشعر، مثل الاهتمام بارتداء ملابس على أحدث الموضات، جزءا من النمو) في تلك الفترة رغم أنني توقفت عن الصلاة، وكنا نناقش بحرية وجود الله في بيت "أشرف النويهي"، بعد أن نذاكر قليلا في كتب الهندسة، لم أنس أبدا أطياف النور في حديث جدتي في ذلك الصباح الذي يبدو واضحا مع عدد قليل من الصور.

تبدو كلمات جدتي بنصها بعيدة وسرابية، لكن اكتشاف النور، والإحاطة الكلية لله استمرت حسا باطنيا مبهجا. هنا في أصباح أجازاتي الفارغة (أفكر في النزول إلى الأسواق وزيارة بعض الزملاء) كم تمنيت أن تكون كلمات جدتي بنصها حاضرة، لكي أعرف من أين نبع النور. كثيرا ما حاولت أن أصل إلى ما قالت على وجه الدقة. في فراشي، عندما أستيقظ في ميعاد العمل يوم الأجازة، أحاول النوم مرة أخرى بلا جدوى، استبدل ذلك بمحاولات استحضار ذلك الصباح، والبحث عن صورة جدتي ونبرة صوتها، وتذكر نص كلامها. لا يتبقى من كل ذلك إلا جملة واحدة، متأكد منها ومن النبرة التي نطقت بها: "كما يبدد نور الشمس ضباب الصباح". المعنى والحس هو ما بقى، أما النص فقد تلاشى كما تلاشت تلك الأيام. كان أمرا ساذجا وطفوليا أن أحاول استعادة نص كلمات مر عليها زمن طويل.

في صباح تلك الجمعة ارتدينا جلابيب بيضاء، خالي "محمود" و"محمد" وأنا، وخرجنا من باب الجنينة لصلاة الجمعة.

t.me/qurssan

ابتسمت جدتي، واكتسى وجهها الأبيض بمسحة من النور والرضا. لمحت طيفا مشعا في عينيها أثناء ابتسامها. عرفت في تلك اللحظة أنها ستموت. سرى في جسدي خوف غريب عندما عدنا من صلاة الجمعة، ورأيتها لازالت على الكنبة، علبة الخياطة في حجرها كما هي، لم تُفتح، وقميص خالتي "سميرة" الأسود في يدها. لم ترتق الملابس في ذلك الصباح، ورغم أنها لم تمت إلا بعد ذلك بعام تقريبا، لكني ادعيت أنني كنت قادرا على الرؤية أكثر منهم، وأن موتها كان قريبا منها في ذلك اليوم. رأيته يحوم حولها، كأنه طيف شفاف، ظهر في لمعة عينيها وبريق خافت لاح حول وجهها الأبيض.

أثمرت صلاة الاستخارة رفضا لأن تتزوج "سميرة" من زوج أختها "ثريا"، وعادت خالتي "سميرة" في الأسبوع التالي من بيت الخالة "منيرة"، أكثر صمتا مما كانت. تجلس معنا في الشرفة، وتتحجج بأي شيء ثم تدخل غرفتها وتغلق عليها. في الصباح تقوم من النوم منتفخة العينين، وشعرها مربوط بمنديل. عندما تحدثها تستمع إليك دون أن يبدو أنها تسمع شيئا. كانت قد أنهت دبلوم المعلمين في السنة الماضية، وتنتظر التعيين. بدأت تستقبل بعض صديقاتها لوقت قصير، ورفضت أن تخرج معهن رغم إلحاحهن. لم تعد "كريمة صحبي" تزورها. عرفنا أن أبي بدأ يتكلم عنها، وأنها تعد نفسها لتتزوج منه. "أفراح" هي التي تشبعت بأجواء تلك الفترة. هي الآن بعيدة، تقوم في الصباح الباكر في مدن شمال كندا المعزولة المحاطة بالثلوج، ربما في تلك الأصباح، وهي تقود سيارتها في طريقها إلى العمل، تعيد التفكير في خالتها "سميرة"، في

تلك الفترة العصيبة التي كان عليها أن تواجه محاولة إجبارها على الزواج من زوج أختها، وكيف قابلت بنفس الرفض زواج صديقتها منه. "أفراح" هي التي يمكن أن تتحدث بدقة عن تلك الفترة القصيرة الكالحة التي فقدت فيها خالتي "سميرة" روحها. هي التي عرفت أحاديث البنات في غرفة الجلوس المغلقة، هي التي تعرف أشياء لا أعرفها، سأرسل إليها خطابا أسألها إن كانت لا تزال تتذكر خالتها في تلك الفترة الكئيبة التي تلت عودتها من بيت الخالة "منيرة"، وكيف تحولت روحها، وأصبحت غير قادرة على نطق الكلمات إلا بصوت خافت، وخيل إليّ أن عينيها تحط على الأشياء ولا تراها، ولم يعد شرودها مثيرا. لم يعد ذلك الشرود المنتبه المليء بالترقب الذي أحببته. لم تخرج من غرفتها وتشارك في أعمال البيت إلا عندما كسرت ساق "أم وداد".

ذات يوم حمل عم "مرسي" البوسطجي جواب التعيين. كنا في الخريف، وكانت جدتي فرحة، لكن خالتي "سميرة" استقبلت الأمر ببرود، وتركت الخطاب على البوفيه، وعادت إلى غرفتها. في اليوم الأول لها في العمل، ارتدت التايير الأسود الذي اعتادت أن تخرج به. جاءت جدتي من المطبخ منزعجة وقالت:

"أسود في أول يوم لك في الشغل. اخلعي ... اخلعي.."

كانت لحظة أخرى صعبة من لحظات العناد بين جدتي وخالتي. أصرت جدتي أن تغيره، وقالت: "لن تخطى خارج البيت بالأسود". خضعت لإرادة أمها واضطرت متأخرة عن ميعاد العمل أن ترتدي تاييرا لونه ذهبي وخرجت غاضبة. ظلت جدتي جالسة

t.me/qurssan

على الكنبة والجاكت الأسود في حجرها وقبل الظهيرة دخلت غرفتها، وأخرجت الصرة القديمة وألحقته بملابس الراحلين.

تحتفظ جدتي في قاع دولابها بصرة كبيرة من الملابس تحيطها -مثل أشياء كثيرة- بجو من القداسة لا يمكن الاقتراب منه إلا ببعض الطقوس. في المرات القليلة التي شاهدتها تخرج هذه الصرة كانت أصابعها ترتعش ولا تكف عن التمتمة بآيات القرآن والتحدث إلى نفسها. يحيط بتلك الصرة جو من الوقار والخوف. تنبعث منها رائحة "كمكمة". تظل جدتي ترتب تلك الملابس وقتا طويلا. تطوي "بِدَل" جدي الصوف وتضع بنظام ربطات عنقه، وملابس "فؤاد" العسكرية، وفستان عرس ملفوف في ورق يخشش، يوشك أن يبدد الصمت المقدس. "فستان عرس المرحومة "ثريا" أجابتني ذات يوم كأنها تتحدث عن شخص غريب عني. طوت الجاكت الأسود ببطء ووضعته مع رفاقه ثم أغلقت الدولاب بإحكام، ووضعت المفتاح في صدرها، كأنها خائفة أن يهرب. أول مرة تغلق الدولاب بالمفتاح، وتضعه على هذا النحو الذي تخفي به "أم وداد" الأشياء العزيزة عليها.

كانت خائفة من الجاكت، لكن ما كان غريبا في نظري يومها، هو وضعها المفتاح بجانب صدرها، مثل "أم وداد"، وهي لا تطيق ملابسها وتشكو من ضيق النفس. كانت قد أخفته إلى الأبد كما ظننت، لكن "سميرة" بحثت عنه بعد عودتها من العمل. قالت جدتي: "قطعته بالمقص". ما لم أعرفه في وقتها أنها أخفته لكي تكف "سميرة" عن الزيارات الصباحية السرية لقبر "فؤاد". بكت "سميرة"، وقالت: "لن أخرج ما لم تعيديه لي". مرهقة قامت جدتي

وألقته على الكنبة. حملته "سميرة" وعلقتـه علـى الـشماعة فـي دولابها، ولم تلبسه إلا يوم الذكرى السنوية الثانيـة لمـوت "فـؤاد" عندما استيقظت جدتي في الفجر وأيقظتها وأخذتها لزيـارة أخيهـا متجنبة ما حدث من ارتباك في العام الماضي.

في إحدى زياراتها المسائية اصطحبت الخالة "منيرة" رجـلا قصير القامة، شعره أصفر خشن، ونظرته هادئة. لم تجلس كعادتها على الكنبة في الصالة، بل طلبت مـن "محمـد" أن يفـتح غرفـة الجلوس. بسرعة حملت كتبي وناديت "أفراح" لتحمل أشياءها التـي كانت متناثرة في الغرفة. همست جدتي لـ "محمد" أن يذهب إلـى بيت الباشا ويطلب خاله بالتليفون. كانت تعرف أنه ذهب إلى محـل الأقمشة لزيارة عمه. خرجت "سميرة" من غرفتها، بعد أن أمرتهـا خالتها "منيرة" أن تغير ثيابها وتتزين. بعد قليل كانوا يجلسون فـي غرفة الجلوس التي جعلها ضوء النجفة مشعة وصـاخبة. صـوت الخالة "منيرة" يغطى على بقية الأصوات. ارتدت "سـميرة" تحـت سلطان خالتها أفضل ما لديها: بلوز أحمر نبيتي، بياقة تحيط برقبتها وقاومت بشدة أن تمشط شعرها بطريقة جديدة، لفته على شكل كعكة على عجل، ورغم ذلك كان جميلا بسبب كثافته وسواده. كان وجـه جدتي مشرقا بعد أن غادر الرجل البيت. الغريب أن "سميرة" وافقت أن تتزوج من رجل لا تعرفه، كانت تطيع أمر خالتهـا "منيـرة"، كأنها تعد لها ما لا تستطيع أن تعده لنفسها.

أيام البرد في ديسمبر من ذلك العام كـان ميعـاد الزفـاف. رفضت "منيرة" أن تُغنى أغنية واحدة. البيت مجروح كمـا قالـت. ارتدت "سميرة" فستانا مطرزا بالخرز الملون على الـصدر. كـان

t.me/qurssan

ذراعها مكشوفا، منكمشة كأنها تشعر بالبرد، وعلى وجهها انطبعت بسمة مغتصبة. أغلقت صديقاتها غرفة الجلوس عليهن، وكان يُسمع ضحكهن عاليا أحيانا، وعندما حاولت إحداهن أن تـرقص أوقفتهـا الباقيات. ضحكهن كان ينقطع فجأة، عنـدما تـرين تلـك البـسمة المتجمدة على وجه "سميرة". دفعتها إحدى زميلاتهـا فـي كتفهـا، وقرصتها الأخرى من فخذها، وحلّفتها واحدة أن تحكـى لهـا مـا سيحدث. كانت تواجه كل تلك الطلبات بـنفس رد الفعـل: تطـوح رأسها وتبتسم.

في المساء آن الوقت لتذهب إلـى بيـت زوجهـا. توقفـت السيارات أمام البيت. كان زوجها يرتدي بدلة زرقاء ورباط عنـق أحمر وكان في طولها تماما، وبسبب نحولها بدت أطول قليلا منه، وقبل أن تعبر عتبة البيت لآخر مـرة تعثـرت وكـادت أن تقـع، فاستندت على كتف عريسها. وضعت ذراعها على ذراعه، ونزلت الدرجات القليلة ولم تنظر خلفها. أطلقت أخت العـريس زغـرودة كبيرة، قوبلت بالصمت.

بعد ذلك بزمن طويل، قابلت "سهام" بنت خالتي "سميرة"، في المدينة الخليجية التي أعمل بها. كانت في زيارة سريعة لحـضور أحد المؤتمرات الأدبية. اتصلت بي والتقينا في كافتيريا الفندق. لـم أكن قد رأيتها منذ أن كانت طفلة. كانت خالتي "سميرة" قد ماتـت منذ سنوات. قالت "سهام": "كانت تتذكرك كثيرا". سـألتني: "أيـن النظارة؟" قلت إنني عدلت النظر بالليزر، ثم ضحكْت: "لكني مازلت أخاف من العمى". ضحكت "سهام" وقالت: "حكت لي كثيرا عن أنك كنت تصحو في الليل خائفا أن تكون قد فقدت بـصرك". سـألتها:

"معك صورة لها؟". كانت تحمل صورة صغيرة لأمها في تلك الأيام البعيدة عندما التقط لها محل "فينوس" صورة بـــالأبيض والأســـود، وجهها باسم مستدير، الشعر الكثيف الأسود نـــازل علــى الظهــر، وقُصة تحيط بجبهتها، وعلى شفتيها تلك البسمة الغامضة التي كانت علامة شرود خالتي "سميرة".

عدت حزينا لم أكن أتخيل أن يكون هذا مــصير "ســميرة"، التي لم يكن أحد يساويها في المرح، لقد أعاد إليّ هذا اللقاء منـــاخ بيت جدتي وروح المدينة التي لم أرها من سنوات طويلة. كانت ليلة سيئة حلمت فيها بخالتي "سميرة" تجلس في شرفة بيتهـــا الريفـــي، تحدث "سهام" وتشير إليّ: "ابن خالتك أعمى. انظـــري! لقـــد كـــان يحدق طويلا في الشمس." قمت من النوم مضطربا، ولـــم تفـــارقني خالتي طول اليوم، كان صوتها مبحوحا كالعادة زاد من بحته مرض القلب.

***

t.me/qurssan

ينبعث شرود خالتي "سميرة" من أحداث تبدو لا علاقة لها بذلك الشرود؛ من اهتزاز السيارة في الصباح، من منظر الشوارع الواسعة المغمورة بالشمس، من صوت خافت لموظفة جديدة ترتدي نظارات إطارها ذهبي، من شكل الخط وأنا أكتب تقريرا حول المشروع الجديد.

ينبعث ذلك الشرود من الصمت الكثيف بالليل، ومن أحلام لا أستطيع السيطرة عليها. أمر غريب، أن يظل في هذا الشرود سر، مهما تعددت محاولاتي في فهمه، مهما حاولت تذكرها، وتأمل البسمة الغامضة التي تلوح على شفتيها أثناء الشرود. لم ينل من سحره عدوانية "كريمة صبحي" وهي تقول ساخرة ذات يوم بأن "سميرة" كانت تحب أخاها بشكل غير طبيعي، وظل مرآة ينعكس عليها صمت شفاف تتحرك فيه أطياف لا أستطيع متابعتها. كان غامضا مثل رتق الملابس، وهي تجلس وحدها في غرفة الجلوس، حيا، ومثيرا، وفير الوعود، حتى تخيلت أنه يمكن أن أرى فيه ماذا تعني الحياة، وأفهم السر في أنهم قد رحلوا وتركوا البيت الذي ربما يلوح في ذهن كل منهم على حدة في حياته البعيدة.

لا أظن خالي "تبيل"، لا يتذكر هذا البيت، وإن كان، كما يقولون، عمليا ونافرا ولا يهمه غير المباني والحجارة ورسم البيوت؛ فلا أظن أنه في أحلامه، هناك، في حضن امرأة ألمانية، قد فارقته رائحة الصباح في هذا البيت، ولا أظن "محمد" الذي أتسلم

منه بعض الرسائل من حين لآخر، يصحو من النوم، أحيانــا، دون أن يسمع صوت جدته في المطبخ، ولا نداء "أم عايــدة" عليهــا أن تسرع حتى لا يمشي عم "حسن" بائع الفول، و"أفراح" التي أغراها "محمد" بالسفر هي الأخرى، لا أظن أن أغاني شادية لا تلوح فــي سمعها وهي تنزل من سيارتها في الصباح. لا أظــن أن البيـت لا يتراءى لهم، مثلما يتراءى لي الآن، بنوافذه المطلية باللون الأزرق، بمدخل الجنينة ذات الباب الخشبي، وشــجرة التــوت تميـل علــى السور، وقصارى الفخار بجوار درجات السلم الذي يقود إلى شرفة غرفة الجلوس حيث تتناثر كراسي الخيزران غارقة فــي صــمت فارغ، بعدما مد خالي "محمود" بطولها حبلا لكي ينشر عليه الغسيل عندما أصبح يعيش وحيدا، ورغم أن هذا الحبل قد انتقص من روح الشرفة، إلا أن صمت الكراسي لازال يترقب جلسة مــن جلـسات الصيف تفوح منها رائحة السوداني المحمص الذي تــصر "أم وداد" على عمله في فرنها البلدي. لا أظن أن هذا البيت في عزلته الأثيرة قد فارق أذهانهم، وربما هي أوهامي، فلا ترد أي كلمة في خطابات "محمد" عن البيت ولا في المكالمات السريعة التي تجريها "أفــراح" معي لتطمئن علي كواجب عملي.

عرفت أن "نبيل" قد عاد إلى المدينة فــي زيـارة قــصيرة وقضى عدة أيام في البيت، وتقريبا طرده "محمــود"، بعـد حــوار عاصف عن "المسئولية"، حكاه لي بالتفصيل في خطاب طويل مــن خمس صفحات. كان سكرانا وجاء في رحلة بيزينس يعرض عليــه أن يفتحا شركة لتوكيل بطاريات ألمانية ستحطم الــسوق، وحدثــه "محمود" بخشونة "شعرية" كما أتخيل. قضيت يومين متعبا من هــذا

t.me/qurssan

الخطاب الذي ظل مفرودا على الكومودينو بجوار سريري. كان به أمر مرهق وأثار جراحا قديمة، ظننت أنها اندملت، وبعث من جديد أمل جدتي وترقبها لخطابات ابنها الكبير الذي يدرس في ألمانيا. كان الحزن يأتي من منطقة أعرفها، من صمت جلسات رتق الملابس وانتظار عودته ليرفع الحِمل عنها ويعمر البيت. تذكرت تعليقات زملائي، أيام الجامعة، عن خالي "محمود"، الذي ظل يحافظ على ارتداء طراز قديم من الملابس، ورغم أنني كنت أحول الموضوع إلى نقاش عن الزمن ومروره، وأهمية أن يساير المرء العصر، غير أن ذلك كان دائما مصحوبا بإدراك داخلي بأنني أغالط نفسي، وأن خالي "محمود" قد تيبس في الزمن وسكن نقطة لن يفارقها، لقد أعاد إليّ خطابة الطويل هذا الحس القديم وجعلني أفكر في زيارة المدينة التي لم أعد إليها من فترة طويلة.

رغم ذلك لا يجب أن أؤول زيارة خالي "نبيل" على أنها حنين للبيت، لا يجب أن أسقط مشاعري على الآخرين، وأظن أنهم ينظرون ويشعرون مثلي، فلهم طباعهم الأخرى، ربما تشكلت مناطق حساسيتهم بطريقة مختلفة، ولهم مناطق ذكريات جاذبة أخرى، وإن كان المنطق يرغمني أحيانا على الظن بأنه لا يمكن أن يكونوا هناك في حياتهم الأخرى لا يتذكرون البيت، إلا أن المنطق منطقي، ربما لا يكون لأحد منهم نفس المنطق أو الذكريات، أو نفس الحس الذي شعرت به تجاه صمت خالتي "سميرة"، ربما لم تر "أفراح" من خالتها غير علب الماكياج والفساتين القصيرة، و"محمد" كان مشغولا بلعب الشطرنج وتعلم اللغة الإنجليزية، ربما لا يكون له نفس الحس الخاص برائحة خالته وصمتها، وربما هو الحب

المحرم، ربما كان ذلك، فلم يكن لهم مثل هذا الاهتمام بصمت جدتي أو شرود خالتي، ولكن ذلك يقودني أيضا إلى أن البيت يسكنهم مثلما يسكنني، ربما يحن "محمد" إلى دور شطرنج مع خاله، و"أفراح" تحن إلى مناكفة "أم وداد" في المطبخ وإلى صوت "شادية"، الذي مهما سمعته هناك فلن يكون له نفس الحس الذي كان له في ذلك البيت.

لا يجب أن أطيل النظر في مشاعرهم فلم نعد نلتقي، ولم يعد بيننا غير اتصال عن بعد، ضعيف مثل خط غير مرئي، وإن كان يبدو غريبا في نظرهم أنني لا أترك المدينة الخليجية التي أعيش فيها وأرحل لأعيش معهما في كندا؛ فما دمت لست في بلدي فماذا يهم إن كانت المدينة في الشرق أو الغرب، كما قالت "أفراح" في إحدى مكالماتها، فالأمر يبدو غريبا في نظري أيضا؛ فلا أعرف لِمَ أصر على البقاء هنا ولا أرحل إليهم أو أعود إلى مدينتي وأعيش مع خالي "محمود" في البيت. أعيش نفس العناد الطفولي وأهمية أن يكون لي موقف، إنه مذاق غيرتي القديمة من "محمد"، من تفوقه وذكائه، ورغبتي أن أنفصل عنه وأن أشكل لنفسي حياة خاصة. عندما قال أبي ذات يوم: "لا تمشي وراءه كالدلدول"، كنت في الإعدادية، وقد لا يتبقى من أبي غير دفعي إلى تلك اليقظة المؤلمة على تبعيتي لأخي الكبير، حتى هواياتي المنعزلة المميزة كانت معمولة خصيصا لكي تحوز إعجابه، كل شيء كان ينبع من تلك الأفضلية التي كانت له، وربما تشبثي بمرض عيني كان أيضا شكلا من أشكال جر الاهتمام بي. بعد هذا العمر قد تبدو هذه الأفكار هشة لكي تشكل سببا كافيا لأن يظل المرء وحيدا في مدينة غريبة بعد

t.me/qurssan

تجربة زواج لم تستمر غير عام، وميل أن تستمر الحياة كما هي يوما بعد يوما والتسليم بأنها قد صُبت في قالب من الصخر ولا يمكن التحرك بعيدا عن مسارها. كل شيء متاح ورخي، ما الذي يدفعنى أن أرحل إلى مدينة أخرى وأعيش قلق البدايات وأتكيف مع مناخ آخر ولغة أخرى وناس آخرين؟ ما الذي يجعلني أعود إلى مدينتي وأبدأ مشروعا وأقلق بالنجاح والفشل؟ لقد استرخيت في هذا الهامش الذي صنعته لنفسي هنا، مقتنعا بما أحرزه من تقدم في عملي ومن زيادة مدخراتي، ولا أعرف ولا أريد أن أعرف شيئا غير هذا. الفترة التي عانيت فيها من تقلص البصر هي التي أعادت إليّ التفكير في التغيير، لكن بعد عملية الليزر، تغيرت أشياء كثيرة، عانيت من ذلك الوضوح غير المعتاد في الرؤية، ثم اعتدت عليه، بل شكل أمرا جذابا، فتغير الأحجام والأشكال ودرجة الوضوح أعطاني حسا بأن ما عشته هناك كان حلما، لقد خرجت من الكهف، تبددت الظلال وأصبحت أشاهد العالم الحقيقي، وأنني أعيش هنا منذ الأزل وسأبقى إلى الأبد، ورغم هشاشة الفكرة فقد صدقتها، ومن يومها بدأت تلك الرحلة في التذكر، التي أعادت لي كيان البيت وروح جدتي وشارع شريف وما حدث هناك في عالم لم أعد انتمي إليه، وما أرعاه هنا، هو تلك الصور البسيطة التي تساعدني على انقضاء الحياة.

* * *

صورة لمركب تقف في ميناء، وأخرى لقلعة تحيطها غابات من أشجار كثيفة الخضرة، صور بأحجام صغيرة، لبنات أجنبيات بعيون خضراء، وشعور مرسلة صفراء، معلقة على الحائط بجوار سرير "محمد". على منضدة صغيرة بين السريرين قاموس أنجليزي كبير مفتوح، وقصاصات من الورق، عليها رسومات وتخطيطات، وكلمات أجنبية بحروف كبيرة.

أصبح البيت أكثر صمتا بعد زواج خالتي "سميرة". البرد شديد والأيام أكثر فقرا وفقدت الحياة زخرفتها. في هذا المناخ، كان "محمد" يضمر شيئا لا أستطع تبينه. كنت قد تابعت التبدل الذي حدث في سلوكه منذ أن ألقى بنفسه من فوق السلم، لكن صمتا خشنا وعدوانيا نما بيننا، لم يمكنني من معرفة ما كان يضمر. كان عصبيا، ومن أول يوم له في كلية الزراعة، لم يعد يفكر إلا في جمع أكبر عدد من المجلات الأجنبية. في بعض الأحيان يخيل إليّ أني وصلت إلى تخمين صحيح لنواياه، لكنني لم أعتبرها حقيقية. كنت أقيسها على أحلام يقظتي التي أنظر إليها، مهما كانت جديتها، على أنها مجرد أحلام. لم أكن أظن أن "محمد" عصبي حتى في أحلامه، ومتشدد وأنه سوف ينفذ كل ذلك.

في الليل يتمدد على الفراش ويقرأ في المجلات الأجنبية في ضوء الأباجورة. الظلال على سقف الغرفة تتيح لي أن أتأمل صورا لا نهاية لها، ربما كانت السبب في الأحلام الغريبة التي

t.me/qurssan

رأيتها في تلك الفترة. أحيانا أستيقظ في الليـل، وأسـمعه يهمـس بكلمات غريبة أثناء نومه. في الخامسة صباحا أراقب حركته فـي الغرفة، ولا أستطيع النوم بعد أن يغادر البيت. أفكـر أنـه يـسرع ليلحق بقطار السادسة وأنه في غالب الأحيان لا يلحقه لأنـه يبقـى ساهرا حتى ساعة متأخرة.

كانت جدتي في تلك الفترة تعد نفسها للموت، الذي عرفـت ميعاده في ذلك الشتاء. كل يوم تزداد نحـولا حتـى ظننـت أنهـا ستتلاشى. أحيانا تزورنا خالتي "سميرة"؛ ينزلهـا زوجهـا، الـذي يجيء ليقضي بعض أشغاله في المدينة، من السيارة الفورد القديمـة أمام البيت في الصباح، ويعود ليأخذها في المساء. كانت قد بـدأت ترتدي طرحة سوداء مثل أهل الأرياف، وقد بدا لنا عجيبا أن تتخلى بهذه السرعة عن ميراث وعادات المدينة التي تربت عليها، وتبـدو في طلعتها كأي امرأة ريفية.

كان أبي غاضبا من أننا لا زلنا نعيش في بيت جدتي. لكننـا لم نطق أن نعيش في شقته في شارع صدقي بعد أن تزوج "كريمـة صبحي". كان الأمر غريبا علينا. من الصعب أن نتخيل أن تكـون "كريمة" في مقام الأم. من الصعب أن نتخيل بيتا آخر، غيـر بيـت جدتي. لم يستوعب "محمد" الأمر مطلقا، وكان يشعر بالضيق كلمـا زار أبي البيت، وجلس مع جدتي على الكنبة، وطلب منا أن نجهـز حقائبنا لنعود إلى بيتنا. كانت جدتي تطلب منه أن يتركنـا قلـيلا. تبتسم: "سوف أموت قريبا، وسيكون أمامك وقت طويل لتربيهم في بيتك، دعهم معي في أيامي الأخيرة." يرضخ أبي لها، غير أنه كان يمر علينا أيام الجمع مصرا على أن نصحبه للـصلاة فـي جـامع

شارع صدقي. "محمد" يفعل ذلك بضجر. ذات يوم طلب أبي أن نعد حقائبنا لكي نعيش في بيتنا. رفض "محمد" الأمر بوضوح وقال إننا لن نعيش في "بيتك". كلمة "بيتك" فجرت الغضب الذي ظل يراكمه فترة طويلة. صفع "محمد". بدا الصوت كأنه انغلاق زجاج. لم يتحرك "محمد". صفعه أبي مرة أخرى. لم يتحرك مرة أخرى. صمت ثقيل حط بينهما، ووقفا يحدق كل منهما في وجه الآخر، حتى تنحي أبي وخرج. لمحته مغمورا بضوء الشمس في ممشى الجنينة. تابعته يعالج الباب. لأول مرة أدرك حزنه ويأسه. لأول مرة كنت مستعدا أن أذهب لأعيش في بيته. جاءت جدتي وسألت "محمد" عما فعله "المخفي ممدوح"، لكنه أصر على الصمت. سألتني في اللحظة الأخيرة تراجعت، فقد شعرت بأنني سأخونه إن أخبرتها.

لم تمض عدة أسابيع حتى ماتت جدتي.

جاء أبي وأصر أن نصحبه للعيش في بيتنا. لم يكن هناك أي حجة الآن. حزمنا حقائبنا وغادرنا بيت جدتي يوم الخميس الكبير. كان غريبا علينا أن نفارق المكان الذي عشنا فيه كأنه بيتنا. وعندما دخلنا شقة أبي كنا قد عدنا من أجازة إلى العمل. فتح "محمد" الغرفة الصغيرة التي كنا نقيم فيها، من سنين، صامتا كأنه عقد العزم على حل. كنت ضائعا، لا أعرف مكاني في الحياة. موت جدتي كان أمرا لم أستطع استيعابه أبدا. هز أساس الحياة، ورغم أنني كنت أعرف أنها ستموت عندما أخبرتني بميعاد موتها في الشتاء، لكني لم أكن أصدق ذلك. لم أكن أظن أن هذا اليوم سيأتي.

t.me/qurssan

كانت الحياة في بيت أبي غريبة. كل تفاصيلها تقريبا مختلفة. في الصباح تعد لنا "كريمة" السندويشات صامتة. يقوم أبي مبكرا وعندما نخرج من غرفتنا نراه مرتديا بدلته الكاملة واقفا في الصالة يشرب كوب الشاي ويدخن سيجارة. رائحة الدخان، بالنسبة لي، علامة مرض لم أستطع تحديده. المشوار اليومي إلى المدرسة لم يكن بنفس البهجة. لم أستطع أن أتأقلم مع هذا المناخ إلا بعد عدة سنوات. في الليل أقوم من النوم مفزوعا، تتراءى لي السماء كزجاج أزرق يتمدد ويستدير حتى يحيط بالشوارع، وتصبح المدينة محبوسة في بلورة زرقاء، الهواء لونه أزرق؛ زهرة غسيل مذابة في الجو، كثيفة، نشمها، تتراكم في الرئة حتى يصبح التنفس ثقيلا، مسموعا، ويوشك المرء على الموت. خمنت في تلك الفترة أنني سأموت بالتهاب رئوي مثلما ماتت أمي.

مرضت كثيرا في ذلك العام، وكنت مندهشا من قدرة "أفراح" على التأقلم مع الجو الجديد. لم يتقبل جسدي هذه النقلة. كنت أعيش ضيفا في مكان أخاف أن أتحرك فيه. لم أكن معتادا على الغرفة الضيقة ولا الدولاب القديم ولا المكتب الصغير بجوار الشرفة، ولا الأغاني التي تشغلها "كريمة صبحي" طول النهار. في الليل أقضى فترة طويلة حتى أستطيع النوم، لم تكن لي رغبة في الطعام أو الكلام، وعندما أزور خالي "محمود" يوم الجمعة لا أصدق أن هذا البيت أصبح غريبا عنى.

في المساء يغادر أبي البيت ويعود في الحادية عشرة. عندما بدأت أيام الصيف أصبح يعود في الثانية عشرة. في تلك الأشهر، تكررت المشادات بين "محمد" وأبي، لكن ما أثار حيرتي كان ذلك

الهمس الذي أسمعه في الليل من غرفة الجلوس. يدخل "محمد" بالليل وجهه يلمع بالعرق، وعيونه منداة بالدموع. يهرب من البيت ويقضي أغلب الوقت عند خالي "محمود" أو عند أصدقائه. ذات ليلة صحوت من النوم. تسللت إلى غرفة الجلوس، وجدت "محمد" يزيح "كريمة" بذراعه وهي تعترض طريقه، وتمنعه من الخروج. كان المشهد ملغزا، زاد من غرابة الحياة في نظري، وجعلني منذ ذلك الوقت غير قادر على فهم الأمور فهما صحيحا. اعتبرت كل ما حولي مجرد فصول من روايات. لم تستقر المشاهد في عيني، منذ ذلك الوقت. أصبحت المشادات بين "محمد" وأبي، أكثر عنفا. يوم الجمعة ضربه بيد المقشة. حمل الحقيبة وذهب ليعيش مع خالي "محمود"، لكنه عاد بعد عدة أيام، ولم أعرف التفاصيل، هل ذهب أبي ليعيده أم أنه عاد من نفسه. لم يكن يحدثني في تلك الفترة، وبقيت على تلك الحالة من التشوش الذي عشته منذ موت جدتي. لم يعش "محمد" في بيت أبي غير عدة شهور، وفي الصيف جهز بسبوره، وسافر إلى بيروت، وانتظرت عدة أشهر، لكنه لم يرجع، وشعرت بالخيانة عندما قال لي خالي "محمود" إنه لن يعود.

أعرف الآن أن "كريمة صبحي" كانت تسعي، بشكل ما، لإغوائه، والانتقام من أبي الذي كان يحب النساء، وفي عائلة أمي كان ذلك عيبا ونقصا ما بعده نقص. تقول الخالة "منيرة" إنه "طِفس"، وقال لي خالي "محمود" بعد ذلك، إنه لن يسامحه على موت "ثريا". كان من وجهة نظره لا يعرف من الحياة غير عضوه، وقال لي، عندما ظن أنني يمكن أن أتحمل خشونة حقائق الحياة، إنه

t.me/qurssan

السبب في موت أمي. هو يظن ذلك. وأنها ربما ماتت بسبب أحد الطلبات الغريبة في الفراش، أصيبت بعدها بالتهاب رئوي.

بدأت أشك في سلوك زوجة أبي. كانت تخرج دون علمه، وتتمتع ببراعة في اختراع الحجج للتأخر بالليل. عندما ماتت أمها، باعت ذهبها، واشترت سيارة صغيرة. سمعتهما يتعاركان بالليل. كان يسبها ويصفها بأنها "شرموطة". وهي تتهمه بأنه لم يعد رجلا. إن كان لا يقدر على الزواج فلماذا تزوج. كانت جريئة عليه. تظن أنه حرمها من أن تعيش الحياة التي أرادتها. كان قد ضحك على أمها بالهدايا، كما كانت تقول.

بمرور الوقت بدأت الحياة تستقر. شق نظام جديد لنفسه وجودا، عندها أعادت الحياة اتزانها. بدأت أعتاد فكرة أن ما مضى لن يعود. أدركت بالتدريج، أن الإقامة "هنا" (في بيت أبي) مؤقتة، كما كانت الإقامة "هناك" (في بيت جدتي). فكرة "العابر" زودتني بقدرة على التحمل. إن كان الأمر مؤقتا، فيمكن تحمله حتى لو كان صعبا. يمكن للمرء أن يبتكر طرقا جديدة للتحمل، وأن يلف حول المنغصات. زودتني تلك الأفكار بمرونة، فلم أتوقف طويلا أمام الصعوبات.

بدأت أقضى وقتا طويلا في بيت جدتي. أصبح للبيت طابع آخر. الباب الخشبي للجنينة مفتوح، في النهار، والباب الأساسي لم يعد يستعمل. في كل مرة أزور خالي "محمود"، أجد "أشرف العباسي" و"منير زاهر"، حتى خيل إلى أنهم يقيمون معا، وقد منح وجودهم البيت أنسا، لكنه قضى على حسه الأسرى. تبدلت روح

الغرفة الأمامية المطلة على الشرفة. المكتبة غدت مفتوحة الضرف. الكتب غير مرتبة. "منير زاهر" لا يكف عن الحديث في السياسة. يربط كل تفصيلة عابرة بالسياسة، حتى قال له "أشرف" ذات يوم: "حتى طيران الذباب سياسة"، ورغم المزاح فقد راح "منير" يربط الذباب بالسياسة بجدية، دون أن ينتبه إلى المزاح في كلام صديقه.

تابعت بلا شغف ولا ملل تلك النقاشات. كان "أشرف" لا يهتم بغير الانتهاء من كلية الهندسة، هدفه محدد: أن يسافر ويكون ثروة. أما "منير" فقد وهب نفسه لتغيير الوطن. وكان الأمر بالنسبة لخالي "محمود" متعة ذهنية، تسلية ليس إلا، خاصة أنه قد حصل على شهادة معهد الالكترونيات وقضى تلك الأيام الخالية في انتظار التعيين. في كل مرة أجدهم هناك، إما يلعبون الشطرنج أو الاستميشن أو أجد أحدهم مسترخيا على مقاعد الشرفة. كنت أجدهما حتى أثناء نوم خالي "محمود". في أحد المرات إثر حديث "منير زاهر" عن الأوضاع السياسية وعن تناقص مكاسب الناس وارتفاع الأسعار، تحدث بشيء من التفصيل عن "التضخم"، قام "أشرف" متوجها إلى الخارج:

"هذا الكلام بلا فائدة."

ظل "منير" يتحدث طويلا، وقبل أن يغادر البيت مال تجاه "محمود" وقال:

"ألم تغير رأيك؟"

نظر إليه لحظات، ثم انفرجت أساريره:

"كله إلا هذا.."

t.me/qurssan

ثم قال بجدية:

"أنت تعرف، لا أحب وجع الدماغ. ثم أنني مع الحكومة. لا يمكن أن أخفي منشورات في بيتي."

قال "منير" باسما:

"ستذكرك الوثائق كشخص سلبي رفض الإسهام في دفع عجلة التاريخ."

عاد بعض الود إلى ملامح "محمود":

"عجلة التاريخ لا تنتظرني لأدفعها. تجرى ورائي."

لعدة أيام ظلت استعارة "عجلة التاريخ" مادة للمزاح. لكن "منير" يحول الأمر إلى نقاش يأخذ سمة عصبية، حول من يدفع عجلة التاريخ، هل هي التي تدفعنا، أم نحن من يدفعها. ولكي يفلت "أشرف" من هذا الجو الكئيب، حكي ضاحكا عن أيام لعبهم في الشارع عندما كان أحدهم يتكوم داخل كاوتش سيارة ويدفعه الآخر.

ضحك "محمود":

"أشعر بأننا نجلس في الكاوتش ويد خفية تدفعنا.."

قال "منير":

"كائنات لم تعرف حتى الآن فكرة الإرادة.."

وطوح رأسه:

"لا أعرف كيف أصاحب هذه الكائنات"

اختفى "منير" طويلا وقت اضرابات عمال حلوان في يناير من عام ١٩٧٥، قيل انه قد قبض عليه، لكنه عاد في الصيف نحيلا، أكثر صمتا. لم يحدث أحد عن المكان الذي كان فيه. كان "محمود" في ذلك الوقت قد استلم عمله في إحدى المدارس الصناعية في مدينة صغيرة بالقرب من طنطا.

يستيقظ مبكرا، لم ينم غير ساعات، ليلحق بقطار مفتوح الأبواب، يقف أمام كل قرية. قرى بلا نهاية، لم ينجح في عدها. يصل القطار في السابعة والنصف محملا بالنساء والمشنات والطلاب، والموظفين. لم يكن يطيق ذلك الزحام ولا تلك الفوضى. الناس يركبون من النوافذ، يجلسون على الأرفف المخصصة لحمل الأمتعة. عند كل محطة يحدث لغط لا يحتمل. المشنات مرفوعة على الرؤوس، صراخ وزعيق وتصادم في كل محطة بين من يركب ومن ينزل. عالم صاخب، يحكي عنه في الليل بطريقة سريالية. يحكي عن عنف غريب بين النساء، وعن مودة تقترب من المرض، وعن عراك يسيل فيها الدم من أجل أمور صغيرة، وعن شبق يسلم له الرجال والنساء أجسادهم، غائبين عن الوعي، وأطفال يعيشون في القطار كأنه بيتهم.

كانت المدرسة مبنى قديما يشبه أبنية الوحدات المجمعة في الريف. مواسير الصرف الصحي صدئة ترشح على الجدران. المدخل رطب وتفوح منه رائحة العطن. الفناء ترابي يغمره ضوء الشمس وعارضة وحيدة لمرمى ملعب كرة القدم تقشر طلاؤها. جزء من السور مهدم، خلفه غيطان البرسيم ممتدة حتى الأفق. الفصول بلا زجاج. الطلاب لا يريدون أن يتعلموا. الورش غير

t.me/qurssan

مجهزة بالأدوات. يصور الألاعيب التي تحدث في المدرسة من أجل الحصول على السلطة والمال. خطط سرية ومؤامرات صغيرة لكي يتم تهريب أموال معدات لا تُشترى، أو تُشترى مستعملة أو معطلة. مقالب صغيرة لتهريب أدوات وبيعها. تآمر على مدرسين ليتم حذفهم من جداول الحصص الإضافية وتحويلهم إلى التحقيق. يصف رحلته في القطار وعمله في المدرسة على أنه "غطس في الجحيم"، وأنه "طقس تعذيب" يتم الخلاص فيه من الذنوب، ويضحك قائلا: "كل يوم أتخلص من ذنوبي أولا بأول، وأعود أبيض كما ولدت".

ذات يوم رد عليه "أشرف": "لو "منير" هنا، لاتهمك بالتواطؤ مع الفساد وتخريب البلد، ولحمّلك ذنب أفدح من الذنوب التي تظن أنك تخلصت منها."

كان يحكى عن التوقيع بالحضور بطريقة شيقة، جعلتني أظن أنه يتحدث عن طاقية الإخفاء. بعد ثمانية أشهر من العمل كان لا يزال يندهش من التوقيع بالحضور في دفتر طويل. لم يعتد الأمر لفترة طويلة. هو موجود بجسده، واقفا في الفصل، لماذا يصرون على أن يكتب اسمه في خانة ضيقة كأنه يضع نفسه مقرفصا في زنزانة؟ بعد ذلك أدرك أن التوقيع هو ما يمنحه الوجود، وليس وجوده الفعلي في الفصل، أو واقفا يتحدث مع زملائه أو جالسا في المكتبة. كل تلك الوقائع الجسدية الناصعة لا تعد دليلا على الحضور. اسمه المكتوب في خانة ضيقة كأنه شخص مقرفص هو الدليل الأساسي على حضوره. لو كُتب اسمه في تلك الخانة، وهو نائم في بيته يعد موجودا كواقعة إدارية. الوثائق أهم من الوقائع في

نظر شخص بعيد غير مرئي يراقب أحوال العباد، ويرغب في معرفة كل التفاصيل، سعيد بأن البشر مقرفصون في الخانات الضيقة لسجلات الحضور والانصراف.

بمرور الوقت تبدد استغرابه. أجبرته العادة على اعتبار توقيعه بالحضور أمرا مهما، ثم أخذ يقلق إن لم يوقّع. القطار يتأخر أحيانا. يسرع إلى الفصل. أثناء شرح إحدى الدوائر الكهربية، ينتبه أنه لم يكتب اسمه في الخانة. يظل طول الوقت قلقا. أحيانا لا يتحمل، يجد نفسه يترك الحصة وينزل ليوقع بالحضور، عندها يشعر بأنه قد جاء، قد وُجد كمعلم في مدرسة، يتحول إلى شخص حقيقي حي، يصعد السلم ببطء ويكمل شرح الدائرة الكهربية في سكينة. كانت دهشته من تعوده على الأمر أكبر من دهشته من اكتشاف معنى التوقيع بالحضور.

تزوره خالته "منيرة" في الأعياد، وفي بعض الأمسيات بلا ميعاد سابق. يسمع الصوت المميز لعصاتها فوق الباب. تعود إلى البيت روح قديمة، ويدرك أن ذلك المكان لم ينفصل عن البيوت الأخرى كما كان يظن. دخولها مصحوبة بذلك الجو الصاخب، في تلك الأمسيات، يعيد إليه الحس الأسرى البائد، خاصة عندما تعترض على طريقة عيشه، وتعلق بغضب على نقل قطع الأثاث، وتناثر الملابس، وتراكم الكتب فوق المناضد، وكنبة الصالة. في تلك الأمسيات كانت تحمل معها القصص المعتادة عن بنات من عائلات أصيلة، وأحيانا تكون برفقة "سميرة" ومعها صورة لفتاة. كان قادرا على المراوغة أيضا. لكنه منذ أن تسلم العمل أصبح هدفا لاستدعاءات مستمرة من خالته التي راح المرض يشتد عليها. ذات

t.me/qurssan

مساء أرسلت له سائق السيارة وأمرته أن يزورها، أصرت على أن يصحبها ليرى فتاة من عائلة طيبة، وبسرعة أتمت خطبته قبل أن تموت بعدة أسابيع.

كان عام ١٩٧٧ غريبا. في بدايته قبض على "منير زاهر"، في أحداث يناير. وتم استدعاء خالي "محمود" إلى مباحث أمن الدولة عدة مرات. بعد كل مرة كان يبدو مرهقا، تحيطه كآبة داكنة. قال لي: "إن طلبوني مرة أخرى سأنتحر". لكنهم طلبوه في شهر مارس عدة مرات. لم يعد مضطربا كما كان في المرة الأولى. عندما يعود من مباحث أمن الدولة، يمر عليّ في البيت. أنزل معه، ونجلس في الصالة صامتين، تحيطنا ألوان التليفزيون ثقيلة لأنه كان يفضل ألا يضيء لمبة الصالة النيون.

في شهر أبريل طلبوه مرة واحدة، غير أنه بقي ليلتين هناك، ثم عاد مرهقا، وظل عدة أسابيع مريضا. كان الأمر فوق احتماله أن يطلبوه دون أن يعرف السبب، ويتركوه دون كلمة واحدة، كأنهم يرغبون في تحطيم أعصابه. هذه المرة تركوه جالسا ٣٦ ساعة فوق دكة خشبية في غرفة واسعة، يدخلون ويخرجون، كأنه غير موجود، وفي النهاية سأله أحدهم: لماذا تجلس هنا؟. وتركوه يخرج من مبني المباحث. كان الأمر مهينا على نحو لا يتوقعه، لو استجوبوه وعذبوه كما حدث في المرات السابقة لكان الأمر مفهوما، كما قال أثناء مرضه في شهر إبريل، عندما أقمت معه إقامة كاملة لكي انتهي من الثانوية العامة بعيدا عن توترات بيتنا.

عندما شفي من مرضه، فسخ خطبته. كان الأمر سهلا؛ فلن يوافق الناس الطيبون على تزويج بنتهم من شاب تستدعيه مباحث

أمن الدولة. كانت هذه هي الفائدة الوحيدة، كما قال، من هذا الاستدعاء.

في العام الأول لدخولي الجامعة تناقصت زياراتي لبيت جدتي تدريجيا. كانت دائرة واسعة تتفتح أمامي. ضباب الصبا ينزاح عني، وأشعر بشيء من الحرية. لم يعد "منير زاهر" يعيش في المدينة، بعد ما خرج من السجن وسافر "أشرف العباسي" إلى السعودية. وعاش "محمود" وحدة خالية ادعى كثيرا أنه يتمناها.

في كل مرة كنت أزوره، كان لنا موضوعا مختلفا. أحيانا يكون موضوعنا عم "مرسي" البوسطجي، أو "سامي" آكل الزجاج، أو "عبده الأصيل"، علبة الخياطة أو أي تفصيلة قديمة تحوم حولها أفكارنا. يتذكر تفاصيل قديمة، يعلق عليها بفكرة من وحي الخاطر أو يردد أفكارا وتأويلات درسها طويلا. نخرج عن الموضوع، ونتبادل النكات، أحيانا نلعب دور شطرنج أو نجهز طعاما، لكن النقطة المركزية التي بدأنا بها يومنا تظل حية طول النهار، كلحن خلفي لليوم، حتى أنني أذكر أن الأيام الخالية من هذه النغمة قليلة.

أي موضوع يصلح لتأملات لا تنتهي. كان ينسى تفاصيل كثيرة، لكنه يحتفظ في ذهنه بجوهر الأشياء، كأنه تأملها طويلا قبل أن تنمحي. روح الأشياء حاضرة في ذهنه، وسائلة في تأويل أو رأي كونه وظل يراجعه فترة طويلة. كانت له طريقة خاصة في النظر إلى الأحداث، واكتشاف موضعه منها. لكنه لم يستطع أن يتخلص من الأثر المهين الذي تركه في كيانه استدعاؤه إلى أمن الدولة في المرة الأخيرة.

t.me/qurssan

عندما زار السادات القدس في نوفمبر من ذلك العام أصبحت لدينا مادة خصبة للحديث. كان يميل إلى الأستاذ "منصور" العباسي مدرس الرياضيات ووالد صديقه، ويزوره أحيانا –بعد سفر "أشرف"– ويرى في غرابته أمرا طريفا. لكن موقف العجوز من زيارة السادات كان، من وجهة نظره، بداية جنون الرجل الذي عاش بحزم ودقة طول حياته. كان يرى أن الأستاذ "منصور" عالج عدم تصديقه لزيارة السادات بمحاولة تبرير تلك الزيارة. يقول "محمود" إن الذهن الرياضي للرجل لم يقبل تلك المزحة السخيفة، فحاول أن يقنع نفسه بأن ما حدث أمرا منطقيا وانحاز إلى ما لا يصدق.

بالتدريج بدأت طريقته في النظر إلى الأمور تدهشني، بدت لي شخصية، وتعاملت مع رأيه من زيارة السادات للقدس بنفس الدهشة التي تعامل بها مع رأي الأستاذ "منصور". كان يقول إن ما قام به السادات "قلة قيمة". كانت الزيارة في نظره مهينة، وغبية، تدل على أن من قام بها لم يقرأ سطرا واحدا في تاريخ بلده، لم يعرف أي شيء عن هذا الميراث القديم والشرور التي جاءت لتلك البلاد من الشرق، لقد حط من شأن البلد الذي يمثله بهذه الزيارة. كنت أبتسم، ولم أكن مستعدا لمناقشته، غير أنه كان يضيق بنبرة الخفة التي تكتسي بها كلماتي، ويحاول أن يفهمني عمق رأيه في موضوع "المكانة التاريخية". أسكت عندما أشعر أنني تجاوزت حدود المنطقة الآمنة، وأوشكت، عن طريق مناقشة الأحداث العامة، أن أنكأ جروحا شخصية. أصمت، لكنه يستمر، بإلحاح في تكرار دليل، أو ذكر تفصيلة، مثل رفض وزير الخارجية مرافقة الرئيس،

وغيرها من دلائل "العزة الوطنية". كان ممتعضا من تلك الهزيمة الثالثة كما أسماها.

أصمت لأنني كنت أهدد في تلك اللحظة البناء الذي أقام عليه حياته. فهو يظن أنه يقيم بتلك الأفكار الشخصية ستارا، روحا فريدة لكي يبرر لنفسه استمراره في حياة خالية. يخفت إصراره أن يقنعني، وينتهي الكلام، فأقوم لأعود إلى البيت. يبدو عليه بعض التوتر، كأن النقاش كان حجة لكي يمتد الحديث ويستغرق أكبر قدر من الوقت. يمسح وجهه بكفيه ويدعي الكسل، ويفرد ذراعيه، ويمط جسده في المقعد، ويعرض علي، بصوت خافت، كأنه لا يقصد ولا يتشبث، أن أبقى الليلة؛ "هات كتبك وذاكر هنا". كنت أتواطأ معه وأتحجج بأي شيء، وأقول: "اليوم لن ينفع، سوف أرتب نفسي وأجيء لأقضي هنا يوما أو يومين".

كان بارعا في النقاش. يسرد الحجج كأنه يلعب. في لحظات كثيرة يخيل إليك أنه لا يناقش بل يلعب، وأنه يعرف الحقيقة ويصر على عكسها، لمجرد خلق مناخ من الإثارة. كل شيء يمكن أن يتحول إلى "قضية" إذا عكست وجهة النظر، والعقل أداة للنفي والإثبات في نفس الوقت. لا شيء في الحياة يمكن أن يكون مطلقا. هذا الاهتزاز الذي يقيمه أثناء النقاشات كان حسا داخليا وربما أداة خاصة للسكينة، ربما امتد عميقا إلى جذور القلق من طريقته في الحياة، ورغبة في أن يطمئن نفسه أن الحياة لا يمكن أن تعاش بطريقة واحدة، بل لها أشكال متعددة، فلا يكون مضطرا - أمام نفسه- لتبرير طريقة حياته. في تلك الأيام البعيدة لم تكن الأمور واضحة لي على هذا النحو، كنت مندمجا فيها، أصدق أنها حقيقة،

t.me/qurssan

أما الآن فأرى الظلال، لكن سيظل ممتعا لي تذكر طريقة حديثه. كان ممتعا وسخيا في حسه الفكه وألاعيبه العقلية.

أحيانا أشعر بأن النقاش به عناد صبياني، عندما يتشبث برأيه المختلف عن أراء من حوله، دون أي اعتبار لما يمكن أن يجر عليه من عداوات وسخريات زملائه في المدرسة، كأنه يريد أن يعاقب نفسه. تظن أنه مازال يعيش ضغائن طفولية بعيدة، لا يعرفها غيره، عندما أتذكر خالي "نبيل" أو "فؤاد". في تلك اللحظات يكون جادا ومكتئبا، وينهي النقاش بحسم وبطريقة عدوانية، ويغرق في صمت ثقيل، كأنه يتذكر أمورا لا تحتمل. في الحقيقة كان يتوه وتغيم عيناه، ويعدل النظارة عدة مرات لا يدري ماذا يفعل بها. تلك أتعس اللحظات. نظل جالسين في أماكننا دون حركة حتى يدخل الظلام. أقوم مضطربا ومتعبا، من تلك الأشباح التي أشعر بها تتململ في المكان. أشعل النور وأتركه صامتا.

أحيانا يتخلى عن هزله وعدوانيته، ويحاول بسماحة أن يتتبع شبكة التفاصيل الصغيرة غير المرئية التي أوصلته إلى تلك الحياة الخالية. تلك لحظات جادة وحقيقية لا تكشف عن ألم – رغم وجوده– بقدر ما تكشف عن حيرة موشاة بألم ودهشة لما يحدث لنا دون وعي منا. كيف تقودنا شروط حياة لا نعرفها إلى أماكن لم نكن نظن أننا سنصل إليها. كان ذلك مرهقا، لكنها لحظات خاصة، ومليئة بالصدق والجرأة في كشف ما كان خافيا. كان يتحدث بصدق عن أخيه "فؤاد" ويقول إنه الخسارة الأساسية، لو عاش لاختلفت الحياة. زملاؤه أصبحوا أساتذة كبار في الجامعة وبعضهم سافر واستقر في أمريكا، وأصبح من مشاهير العلماء، لكن عندما يتحدث

عن "نبيل" تشعر بالضغينة والتحامل. يدعى أنه أدرك يوم سفر "نبيل" أنه لن يعود، رأى أنانيته منذ ذلك الوقت المبكر، ويحمّله مسئولية ما حدث للبيت من خراب: "هو من بُذلت له كل التضحيات، فكان عليه تعمير البيت". كانت لحظات نادرة، لكنها كثيفة وحية، يتصل بما يخفيه ويكتمل فيها كإنسان؛ لكنه لم يكن جاهزا في كل مرة لهذا التأمل الجاد في الطرق السرية التي تحول حياتنا.

في يوم خريفي مترب، كان مساء سبت، مررت عليه عائدا من الكلية. أصر أن أبقى حتى نتناول الغذاء معا، مادام اليوم قد ضاع. في ذلك اليوم رتبنا جانبا من المكتبة وعلقنا على المباحثات في كامب ديفيد. ربما كلمة "المباحثات" هي التي استفزته، وتحدث عن اللغة السياسية التي تشبه لغة الكهنة، كيف تزيف وتخلق واقعا لا وجود له. واندهش من أن الناس لا يستطيعون أن يستعملوا كلمات مباشرة واضحة. تلك الملاحظة ربما هي التي شجعته على التذكر واستحضار ذلك اليوم البعيد عندما كان يناقش "منير زاهر" بعد دور شطرنج. يومها قال تلك الكلمات التي وصمته بعدم الوطنية: "لا أعرف لم يحاربون إن كانوا غير قادرين على الحرب."

كل مرة يبتكر لحظة جديدة، ينطلق منها باعتبارها الأساس الذي قام عليه رفضه لأن يعيش الحياة مثل باقي الناس. الأحداث التي شهدت بعضها عندما تُحكى من منظور آخر تبدو كأحداث أخرى: لحظة موت "فؤاد" أو زواج "سميرة" أو موت جدتي، كان لها صدى مختلف في ذهنه وتأويل آخر. هذا الحس الذي يسرى في

t.me/qurssan

كلامه كان مخيفا، أحيانا. يحدثني عن الأسباب التي جعلته يفسخ خطوبته. كان الناس طيبين، يمكن إقناعهم بسهولة بأن ما حدث مع أمن الدولة أمر عابر، لكن المشكلة في أنه لا يجد في نفسه أي ميل إلى حياة من هذا النوع. يحاول أن يصل إلى أصل الصورة التي سيطرت عليه منذ وقت طويل: أن يعيش طافيا على وجه الحياة، لا يتورط في بناء بيت ولا يعيش في شقق مثل تلك الشقق. لم يكن يعرف كيف استقرت في كيانه تلك الفكرة.

خيل إليّ أنه يعيد ترتيب ذاكرته والبحث عن أمر عصي على الإمساك، وربما كانت أحاديثه حجة ليعيد تذكر تاريخ عائلته، جدوده القدماء الذين أنشئوا تجارة القماش في المدينة، وجده الكبير الذي نسخ الكتب تخلصا من الألم والخوف. أحيانا كنت أعارضه بحكم رؤية صبيانية للحياة، التي يجب أن تعاش، لكنه يكون مستغرقا في تلمس الأجواء التي جعلته يعيش هذا المثال. الأحداث الصغيرة التي تقفز إلى الذاكرة تهبه حسا قديما وفير الصور، وقد أهاجت في بعض الأحيان قصص حب قديمة لم يعتن بها، الآن تبدو عزيزة كنقط مضيئة في الظلام. تورط في إحدى الليالي في حكاية، قال بعد ذلك إنه لم يحب أن يحكيها، عن ملمس شفتي "جورجيت" الجريجية. تذكّرَ ليل الجنينة القديم ورائحة نباتات بعيدة، وجسدها الذي سال بين كفيه، أنفاسها الدافئة وهي تهمس له: بكرة سوف أعطيك صورة. صورة المرء هي نفسه، وترجم العبارة: سأعطيك نفسي. كيف فعلَت ذلك؟ كان إعطاء صورة في تلك الفترة البعيدة شيئا مهما في الحب، يعني أن الشخص أصبح أسير من يملك صورته. في الليلة التالية أعطته الصورة، ثم عرف من "أشرف

العباسي"، بعد ذلك، أنها تشاغل شبابا آخرين، ففتر حسه بها، وهو لم يكن يميل إليها أصلا بسبب "حَب الشباب" في وجهها، ولم يلتقيا بعد ذلك. كانت تنظر إليه بعتاب، وتترك النافذة عندما يمر في الشارع. بدا له أن ذلك حدث منذ آلاف السنين. كيف يعيش المرء حياته بلا بصيرة، وعندما يبدأ في الرؤية يكون الآوان قد فات.

كنت على وشك الانتهاء من دراسة الهندسة. أعرف طريقي، وأعمل بلا توان، وأسعى متجنبا المطبات التي وقع فيها. تخيلت أن حياته قد بدأت تسير مرة أخرى عندما فتح مع صديق له محلا لتصليح أجهزة الراديو والتليفزيون في شارع قطيني. قلت إن الزمن تحرك به. لكنه كان يحافظ على الحد الخارجي للحياة، وظلت ثيابه وعاداته قديمة. في الصباح يقوم من النوم متأخرا كالعادة. يطُس وجهه بالماء ويرتدي ثيابه بعجل، ويغلق وراءه باب الجنينة، ويسرع إلى مدرسة الصنايع التي نقل إليها حديثا. دائما يتأخر. عرفوه في المدرسة، ولم يعد أحد يطالبه بالحضور في الوقت المحدد. ومن جهته لم يعد يعبأ بالغياب ولا بالتحقيقات. كان يسير في طريقه وحده بلا صوت وبلا شكوى. في بعض أيام الجمع يحاول ترتيب الكتب. يغرق في قراءة صفحة من هنا وصفحة من هناك، تصفح كتب لم يكن يظن أنها في مكتبته، أو تأمل بعض المخطوطات القديمة، وتبقى المكتبة على حالها. لم يكن أحد يعرف لِمَ يكوم تلك الكتب، ولِمَ يبنى مكتبة في الوقت الذي يرفض فيه أن يبني حياة؟ لقد بدا لي -رغم كل أحاديثه- أنه يعيش سرا لا يستطيع أن يطلعني عليه. ولما حدثته بجدية، قال لي إنك لا تعرف شيئا. لم يكن هناك مجال للمزايدة، من يعرف منا أكثر. كانت أيام جمع

t.me/qurssan

قصيرة صامتة لم أكف فيها، حسب عادات قديمة، عن زيارة بيت جدتي. بمرور الوقت تتراكم الأشياء، ويزداد البيت فوضى، وبدأت أسمع قرض الفئران في كل مكان.

في المساء، يحيي الحلاق على الناصية، ويمشي متمهلا في شارع سعيد، يمر دائما على "مكتبة" في ميدان كتشنر، يتحدث قليلا مع شاب أصلع مازال يطيل سوالفه، ثم يمضي إلى شارع قطيني، يفتح محل تصليح الأدوات الكهربائية، ويشغل الراديو ويجلس محدقا في الفضاء كأنه يرى كائنات شفافة. لا بد أن مظهره ترك حسا بأن به مسا أو أنه مريض على نحو ما، غير أن الناس كانوا يتسامحون نظرا لمهارته في تصليح الأجهزة وتهاونه في أجره، وظنوا أنه مجرد رجل توقف زمنه عند بداية السبعينيات، خاصة أنه ظل يطيل شعره ويترك سوالفه تنزل إلى نهاية ذقنه، ويرتدي البنطلونات الضيقة.

قبل أن أسافر إلى الإمارات بعدة أيام، فتحت عيني ذات مساء، فرأيته يجلس على مقعد أمام سريري في شقة أبي. قال بصوت خفيض:

"مر على غدا لننظم المكتبة"

حاولت أن أستبقيه لنخرج قليلا. قال إنه مستعجل. في اليوم التالي عرفت أنه تعب من الفئران وأنه لم يعد يتحمل القرض داخل الجدران طول الليل. كان قد جهز كل شيء: الجاز وقطع الزجاج وسموم من كل نوع. قضينا اليوم نرتب البيت، ونبحث عن الشقوق في كل مكان، حتى جاء المساء والبيت تفوح منه رائحة الجاز.

***

لازالت جدتي تعيش، رغم أنها قد ماتت فعليا في شتاء ١٩٧٣، عندما كنت في الثالثة عشرة من عمري. كان شتاء باردا. الأيام غالبا بيضاء. الشمس تشرق دقائق معدودة، ثم تتوارى خلف غلالة من السحب. في ذلك الشتاء كنت أرتدي "بلوفر" مفتوحا من على الصدر وهي تتعجب، كل يوم، عندما تراني أخرج إلى المدرسة، كيف أتحمل هواء شارع "سعيد" الواسع، بهذا "البلوفر" المفتوح. تقول كلمة "واسع" بطريقة تُظهر ذلك الاتساع الذي تظنه، وتكشف أنها احتفظت في ذهنها بتصور خيالي عن شوارع راحت تتغير بسرعة في تلك الأيام. لم تكن قد رأت ميدان كتشنر تعبره بنات بفساتين ملونه قصيرة جدا، وأذرع عارية، لم تر البيوت الجديدة التي بنيت هناك. كان الاتساع الذي تظنه قديما، فلم تكن قد رأت الشوارع منذ ما يقرب من ثلاث سنوات.

كانت تتحرك في البيت كالطيف، عيونها مفتوحة تصر على عمل كل شيء بنفسها. تقوم من النوم مرهقة بسبب سرب طويل من أحلام تنتظر أن تغمض عينيها حتى تبدأ في الحياة. اعتبرَت ذلك علامة على اقترابها من الموت. لا يعود الأمر إلى قياس نفسها على زوجها الذي اهتم بالأحلام قبل موته، بل إلى يقينها أن الأرواح تحوم حولنا طول الوقت، لا نراهم، وعندما ننام، نتخلص من أنفسنا التي تشكل حجابا يستر عنا العالم الآخر، وندخل عالمهم.

t.me/qurssan

كانت تحمل هذه المعرفة القديمة جدا معها طول الوقت. تتذكر زوجها عندما اهتم بالأحلام قبل موته. ذات صباح بعد أن وضعت صينية القهوة على منضدة غرفة الجلوس وجلست بجواره، قالت:

"لا تتعب نفسك. إنهم يعرفوننا أكثر منا، ويحومون حولنا".

وبعد أن كان يناكفها ويدعى أنها لا تفهم من هذه الأمور غير خرافات جدتها، ابتسم يومها:

"يبدو أن الحق معك."

اعتبَرَت ذلك الصباح واحدا من أسعد أيام حياتها؛ فهو اليوم الذي اعترف فيه زوجها بأنها تملك المعرفة التي تجاهلها طول عمره. أصبح الاستحسان مؤكدا وعلامة دامغة على صدق حدسها، عندما مات بعد عدة أيام، واعتبرت كلمته الحقيقة التي يراها الموتى قبل تركهم عالمنا، ومنذ ذلك الوقت أصبحت تعتد برأيها اعتدادا لا نهائيا، خاصة تلك الحدوس الداخلية التي تحل في قلبها فجأة. أصبحت تحكى موقفها مع زوجها قبل موته في مناسبات مختلفة. تحكيه لكى تعزز رأيها ابتداء من ارتداء الملابس والدخول بالقدم اليمين إلى البيت وعدم النوم إلا بعد قراءة الفاتحة، وعدم الحديث في الحمام، حتى تفسير الأحلام.

أصابني في هذا الشتاء "دور برد"، اعتبَرته نتيجة رفضي لنصيحتها بأن أرتدي ملابس ثقيلة تناسب اتساع وبرودة شارع سعيد، وعندما وضعت يدها على جبهتي في الصباح قالت غاضبة:

"ألم أقل لك؟"

ومدت يدها بكوب الليمون:

"أنت لا تسمع الكلام".

وحكت حكايتها مع زوجها الذي ظل لا يعترف برأيها طول عمره وقبل موته عرف أنها كانت تتحدث الحقيقة طول الوقت.

كانت تتحرك في غرف البيت بــلا قــانون، تحيطهــا تلــك الهمهمات الغامضة. أثناء مرضي، كنت أجدها جالسة على طــرف السرير، وفي يدها "البلوفر" المفتوح. بلا جدوى حاولت أن أقنعهــا (خائفا أن يختفي في صرة الملابس القديمة) بأنني أصــبت بــدور البرد بسبب حمام الجمعة. تنظر إليّ بعيون باسمة، غيــر مقتنعــة، ثابتة عند رأيها بأنني أخذت دور البــرد لأننــي ارتــديت البلــوفر المفتوح في فضاء شارع سعيد الواسع.

كانت على قناعة تامة بما تقول، وعندما لا نصدقها تــصمت وتتركنا، كأننا بسبب عدم تصديقنا، سنتعرض لمخــاطر مــن هــذا النوع. تصمت مستسلمة كأنها فقدت كل حيلة. في آخر النهار تكون مرهقة كأنها بذلت جهدا خارقا لتعيش يوما آخر. أنفاسها مــسموعة في أرجاء البيت. أحيانا تنام وهي جالسة ملفوفة بحرام أسود علــى أحد كراسي غرفة الجلوس، ونحن نذاكر دروســنا حولهــا. منــذ التاسعة تقوم باتجاه غرفتها، ويبدو أنها ذاهبة لتسلم نفــسها لآخــر إغفاءة، حتى أنني كنت أندهش عندما أسمع صوتها تتمــتم بأدعيــة الصباح.

كانت "أم وداد" قد كسرت ساقها وغابت عن البيت في تلــك الفترة، وهو ما أتاح لي فرصة مراقبة تفاصيل حياة جدتي في أيامها

t.me/qurssan

الأخيرة. ذات يوم لم أسمع أي صوت. بحثت عنها في الغرف خائفا، أن تكون قد ماتت وغادرت البيت أثناء نومنا. عندما توجهت إلى المطبخ. رأيتها تقف شاردة تنظر بصبر إلى الماء، في الكنكة، يفور حول البيض. شعرت بأنني أشاهد معجزة، فقد بقيت على وجه الأرض يوما آخر، حتى كان ذلك الصباح الذي رأيتها فيه تستند على جدار المطبخ كأن الأرض مادت بها فجأة. وقفت صامتة تحاول أن تحافظ على توازنها. كنت أجهز حقيبة المدرسة. نافذة الصالة مغلقة الزجاج، الضوء به طيف أزرق، وحس بأن البيت خال، لا يسكنه أحد. خفت من رؤية جدتي تائهة على هذا النحو، كأنها تحدق في هاوية. نبهها الصوت المعدني لقفل الحقيبة، ابتسمت وجاءت تحمل السندوتشات، ونبهتني أن آخذ بالي من النظارة، في الوقت الذي اعتبرْت تلك التوصيات من بقايا الطفولة، لكني شعرت بها تقف كالعادة تراقبني عندما فتحت الباب الكبير، وسمعتها تنادي:

"وانت راجع مر على "أم عايدة". قل لها: جدتي تريد أن تتكلم معك."

كان النهار متربا والشمس باهتة تشرق وتختفي تحت قطع متناثرة من السحب، وعندما عدت إلى البيت في الظهيرة، سمعت صوت المسيحية، فعرفت أنني نسيت أن أمر عليها. كانت "أم عايدة" تجلس على الكنبة، بجوار جدتي ورائحة البن تنتشر في البيت، قالت بصوت خافت:

"صل له واطلبي الرحمة"

قالت جدتي:

"كان قريبا، يقف في مدخل الباب، علــى وشــك الخــروج، وكنت قلقة لأنه يرتدي قميص نصف كم في هذا الجو البارد، طلبت منه أن يدخل ويرتدي جاكت. "لن أسمح لك بالخروج دون أن تلبس الجاكت"، قلت له. ابتسم بسمته المطيعة، ودخل غرفتــه. انتظــرت طويلا، ثم ناديته عدة مرات، لم يرد. دخلت الغرفة. كانت خاليــة. بحثت عنه في كل مكان، كان إبره ضاعت في كوم قش. عرفــت أنني لن أراه بسبب ضعف بصري، ولمت نفسي لأننــي اســتهلكت نظري في رتق الملابس، في الوقت الذي كان على أن أصونه حتى أستطيع العثور عليه الآن. قمت وصليت الفجر، وبقيت حتى خــرج الولد إلى المدرسة."

قالت "أم عايدة":

"اسمعي..."

ومالت كأنها تسر إليها بأمر:

"إنهم أسعد حالا منا، إنهم في السماء."

اعتدلت وأخذت رشفة من فنجان القهوة، فــي حــين كانــت جدتي تثبت عينيها على الحائط المقابل، تمسك الفنجان قبل أن يصل إلى شفتيها.

وضعت "أم عايدة"، يدها على كتف جدتي وابتسم وجهها:

"تعالي نروح درب الأثر، مثل أيام زمان، نشتري حاجاتنا".

t.me/qurssan

ابتسمت جدتي وطوحت رأسها، كأن مجرد السيرة تكفي أن تعيش هذا المشوار المبهج الذي كان يواكب استلامها معاش زوجها. لمّت "أم عايدة" طرحتها وقامت في طريقها إلى الباب:

"سأمر عليك في الصباح."

ابتسمت جدتي.

قالت "أم عايدة":

"المحروس ابني سيجيء الليلة لزيارتي، يلف على الأطباء بامرأته من أجل الحمل، في الصباح سأمر عليك."

رافقتها جدتي، وكعادتها مالت بجذعها خارج الباب، ونظرت إلى عمق الشارع، وقبل أن تبتعد "أم عايدة" قالت جدتي:

"سأسلم لك على عايدة".

توقفت المسيحية، ونظرت في الوجه الشاحب، وأكدت لخالتي "سميرة" بعد ذلك بأن أمها عرفت ميعاد موتها.

في غياب "أم وداد"، لا أعرف كيف تصرفت جدتي، وطلبت أختها "منيرة"، التي دخلت البيت منزعجة في المساء. جلست جدتي بجوار أختها دون أن تجيب على أي من أسئلتها المتلاحقة. انتظرت حتى صمتت تماما. نظرت إليها. بلا كلام تفاهمتا. بفهم باطني عرفت الخالة "منيرة" ما سيحدث.

قالت جدتي:

"لا تتركيه حتى يتزوج، ويعمر البيت."

لم ترفع الخالة "منيرة" عينيها عن الحائط.

قالت جدتي:

"يكفي أنني عشت سنتين، لا أستطيع أن أكمل الثالثة، تزوجت "سميرة" وأراحت قلبي، وأولاد "ثريا" لهم أبوهم، لم يبق غير ما أوصيتك به."

سوف يظل هذا الحديث السريع الذي ختمته الخالة "منيرة":

"أبقى معك الليلة."

طوحت جدتي رأسها بالرفض.

قبل أن تفتح الباب، استدارت الخالة "منيرة" وقالت:

"لا تغضبي على "نبيل"، إنه ابنك".

لم ترفع رأسها ولم تنظر إلى أختها.

سيظل هذا اليوم لغزا وعلامة على شيء لا أستطيع فهمه. أقوم من النوم يزعجني الضوء الساطع لأصباح المدن الخليجية، وأجد نفسي أفكر أنها كانت تريد أن تموت يوم شقت ملابسها، بعد شهر من موت "فؤاد"، لكن مهمات ضرورية اضطرتها إلى البقاء. لم تكن قد أتمت كل أعمالها حتى يمكن أن ترحل. بعد ثلاثة أعوام تقريبا لم يكن قد بقي لها غير أن تزوج "محمود" وهو أمر يمكن لأختها "منيرة" أن تقوم به وهي بارعة في تلك الأمور، ولا يستحق منها أن تقاوم لتعيش عاما آخر.

t.me/qurssan

في الصباح لم نسمع حركتها كالمعتاد. لم يأت صوت ترتيل القرآن من الترانستور، المعلق بجوار سريرها. قفز "محمود" من فراشه، وجرى إلى الصالة. كان غريبا أن يصحو في تلك الساعة، كأنه يراقب أنفاس البيت أثناء نومه. دخل غرفتها. كانت نائمة في سريرها كالمعتاد لا ينقصها إلا صوت نفَسها. بعد ذلك حكي لي، كأنه يطلب تفسيرا، أنه شعر بها في الفجر. تابعها بسمعه وهي تصلي وتتمتم بالأدعية، ثم شعر بعيون تراقبه، وعندما فتح عينيه، رآها تجلس على حافة السرير، تنظر إليه. جلس في فراشه مفزوعا. ابتسمت قائلة: "جئت أطمئن عليك". يؤكد أنه رآها جالسة أمامه بشحمها ولحمها، لكن حسا بعيدا خافتا يشككه ويدعى بأنها كانت أحلامه. بعد ذلك مزج بين الرؤيتين وألف أسطورة صغيرة: "كانت ميتة وجاءت لزيارتي قبل أن تغادر البيت".

أتذكر كثيرا هذا اللقاء القصير بين جدتي وأختها، بقدر من الدهشة وعدم التصديق، مثلما لم يصدق "محمود" أنها زارته، لكن عندما أفكر فيما حدث بعد ذلك بثلاث سنوات، عندما استدعت الخالة "منيرة" "محمود" على عجل في يوم جمعة، أعرف أن ترتيبات الموت بين جدتي وأختها كانت حقيقية.

في مساء تلك الجمعة المترب، سمع "محمود" طرقا على الباب الرئيسي للبيت. عندما فتح الباب، قال "عم صالح" سائق السيارة الجديدة التي حلت محل الحنطور، إن خالته تطلبه. أضاف الرجل العجوز مترددا: "قالت لا تعد إلا به". حملته السيارة إلى بيتها الواسع في شارع الفاتح. عندما رآها تخرج من غرفة نومها مرتدية روبا من الحرير الأبيض تستند بكامل ثقلها على عصاتها

رافضة بعصبية أن تساعدها "عزيزة"، عرف أنها مريضة وأن الأمر مهم. طلبت أن يجهز نفسه يوم الخميس لكي يزور بصحبتها أسرة طيبة. فَهِم تَوّا ما ترمي إليه. تركها تسرد ما تعرف عن تاريخ عائلة ناظر مدرسة كريمته فتاة مسمسمة متخرجة من معهد المعلمات شاطرة في كل شيء. هذه المرة لم تتح له جديتها الصارمة أن يفكر في التهرب كما فعل في المرات السابقة. كان الأمر حاسما ونهائيا؛ فالصمت الذي أكملت به حكايةِ بنت الناظر كان ثقيلا وخطرا. وقف مرتبكا، يريد أن يترك البيت بسرعة ليأخذ فرصة للتفكير. قالت بحسم:

"ستكون جاهزا يوم الخميس!!"

كانت اللهجة الواضحة والنبرة التي قيلت بها الكلمات تعنى أنها أخذت موعدا مع الناس ولن يقدر أن يحرجها. أومأ برأسه مستسلما، لكنه رفض بإصرار أن توصله السيارة، وقال إنه يريد أن يتمشي. قال لي إن الموت كان قريبا وهي متعجلة لأن تنهي أمره وترتب شؤونه قبل الرحيل. رغم الأرق والتردد الذي عاناه أسبوعا كاملا، فقد وجد نفسه يوم الخميس، يذهب إلى الحلاق في العصر، وعندما توقفت السيارة أمام الباب، كان يرتدي بدلة كاملة ويركب بجوار "عم صالح" كالمنوم. بعد عدة أسابيع ماتت الخالة "منيرة"، بعد أن استدعته لتوصيه بخطيبته، والأهم لكي ترتب له أموره: أن يذهب إلى عمه ويطلب نصيب والده في تجارة القماش ويشترى جهازه وينهي كل شيء بسرعة.

t.me/qurssan

يوم موتها كان يوما شديد الحرارة. حُمل الجثمان في سيارة إسعاف من أمام بيتها في شارع الفاتح. تفرق المشيعون؛ بعضهم ركب سيارة أجره، وبعضهم استعمل سيارته الخاصة، والبعض الآخر مشى حتى المقابر. وُضع الجثمان في نعش خشبي مثل نعووش الناس. لم يكن النعش يليق بها. لو أنها حية لما سمحت أبدا لنفسها بأن ترقد في هذا النعش الخشبي التي تفوح منه رائحة قش الغيطان، كانت سترفض الموت، وتصر على أن تقام لها جنازة تجرها الخيول وترقد في تابوت من خشب الأبنوس اللامع الذي تفوح منه رائحة المر والبخور، لا بد من أنها كانت ستصر على ذلك، ولأن الجنازة لم تكن لها تلك الفخامة التي تليق بسلطان الخالة "منيرة"، وحسها الصاخب بالطقوس، فقد ظل خالي "محمود" يقول إنها كانت "بروفة" موت.

سأظل غير قادر على فهم الطريقة الغريبة التي يموت بها أفراد عائلة أمي. سوف تخيفني هذه القدرة على التفاوض مع الموت. يرقدون كأنهم مسافرون، ويتعاملون مع الأمر كأنه تجهيزات سفر، بمعرفة وفهم لطبيعة سرية موغلة في القدم. لكن بسبب هذه الترتيبات وبسبب المشهد بين الأختين بقيت غير قادر على تصديق أن ذلك الموت كان موتا حقيقيا. كان رحيلا، أمرا اختياريا، لذا ففي أي لحظة يمكن أن يعود ذلك المسافر. ترسبت في وعي ذلك الصبي الذي كنته، تلك الفكرة بطريقة نهائية، لم أعد الآن قادرا على محوها، لم يعد أمامي غير اختلاق الأسباب والتفسيرات لها. أحيانا أجد نفسي متورطا، في إيجاد أساس عقلي لهذا الشعور الذي استقر في وجداني وغدا مثل شعوري بالحياة. أجد نفسي أفكر:

ألست بعد خمسة عشر عاما في الشارقة مسافرا بالنسبة لخالي "محمود"، ماذا لو مت ولم يعرف بموتي، ألا أظل إلى الأبد مسافرا بالنسبة له؟ في أي لحظة يمكن للمرء أن يقطع سفره ويعود إلى موطنه، مثلما تعود جدتي في أحلامي بكثافة هذه الأيام، لتعزز فكرة أن الموت مجرد سفر. ألم يظل خالي "نبيل" مسافرا بالنسبة لها حتى موتها، وهو الآن في ألمانيا، لو لم يعرف خبر موتها ألا تكون بالنسبة له حية؟ وفي نهاية الأمر أليست روحها موجودة في مكان ما من هذا العالم، يمكن أن أصل إليها أو تصل إلي. ما الذي يجعلنا متيقنين على هذا النحو الساذج من وجودنا في العالم، وأن من رحلوا غير موجودين. أليست الصور القديمة لحياتين أكثر عقلانية وأشد التصاقا بمشاعرنا عن الموت؟

غدوت أسير تلك الأفكار فترة من الزمن، وبدا لي أنه لا شيء يمنع جدتي من العودة، أو يمنعني من الرحيل إليها، الأمر مؤجل فقط حتى يحين الوقت، الذي سوف أدركه مثلما أدركته جدتي وأختها. أحيانا أشعر بمدى عبثية الحياة التي أعيشها، وذلك التراكم الذي بلا معنى للثروة والذي حل محل الحياة، أحيانا أدرك مدى عبث كل شيء، كل تلك الحياة الخالية من الجدوى وأحن بشدة إلى أحكام جدتي ونظرتها الثرية.

في الفترة الأخيرة أصبحت أراها كل يوم. تخرج إلى الشرفة وتسألني: ألم تر الطائر؟ أو تطلب مني أن أذهب إلى بيت "أم نوسة" أطلب من "سامي" أن يتوقف عن الصفير، أو تمسك المقشة وتسألني أن أساعدها في جمع شظايا الزجاج حتى لا يعود الطائر

t.me/qurssan

مرة أخرى. تسأل "أفراح": أين أخفيت علبة الخياطة؟ أو تشكو من الضوء الأزرق قائلة إنه سوف يخنقها.

قرأت كتبا في تفسير الأحلام وحاولت قدر استطاعتي أن أسجل بعض الأحلام، بناء على نصيحة صديق قال لي ذات يوم: "إن سجلت أحلامك لن تحلم بها ثانية". لم تكف الأحلام، لم تتوقف يوما واحدا، ولم يتوقف اهتمامي بها. كان الأمر مثل كل شيء تتعلق به فيتعلق بك، مثل الألغاز القديمة التي كنت أستعيرها من "سمير".

في تلك الحياة الواسعة الفارغة في تلك المدن التي تشعر بأنها مرسومة بالطباشير على الحائط، تورطت أكثر في الاهتمام بالأحلام، باعثا تلك العادة القديمة في حل الألغاز، لكن لغز الأحلام كان يبدو بلا حل. كل يوم يزيد تعقيدا وجدتي تزداد قربا، حتى كان ذلك اليوم الذي تأخرت فيه في مكتبي لأنهي بعض الأعمال. الضوء الأصفر للأباجورة، يغطي منضدة العمل، والغرفة غارقة في الظلام، سمعت صوتها:

"لا يصح منك أن تكسر نظارتك."

كان الصوت واضحا، ومصحوبا بطيف من رائحة ملابسها. بعد يومين أصابتني أول أزمة قلبية.

استشرت طبيبا من أصدقائي. قال:

"الأمر بسيط، تراكم كولسترول في بعض الأوردة."

ولما رآني مهموما، قال جادا:

"الأمر في بدايته، لا تقلق، انقص وزنك ومارس أي نوع من الرياضة... والأهم غير الجو.."

قلت: "أفكر في الإسكندرية."

قال باسما: "لا تنزل مصر... زحمة وقرف."

قلت: "ماذا تقترح؟"

قال: اليونان أو تركيا، بلاد جميلة."

ثم قال مبتسما:

"أعرف أنك من الأثرياء.. اذهب إلى اسبانيا."

ثم سأل دون سبب:

"لم تنزل مصر من مدة؟"

قلت بعد صمت خجل:

"خمسة عشر سنة."

لم يلاحظ الصمت ولا الرعشة الخافتة، فقال مبتسما:

"تغيرت تماما، لن تعرفها."

سألت مندهشا قبل أن أغادر العيادة:

"يعني الأمر بسيط فعلا..؟"

"سافر ومارس رياضة.. ستنتهي المشاكل."

أعطاني الفحص الطبي مبررا، لكي أحاول، جادا، إيقاف تعلقي بالأحلام التي بدأت تخيفني بكثافتها وثقلها وواقعيتها،

t.me/qurssan

واجتهدت أن أجبر نفسي على التفكير بأنه آن الأوان أن أنزل إلى مدينتي وأزور خالي "محمود". كنت أقود سيارتي في الليل، عائدا إلى بيتي، لمحت طيفا يعبر أمامي، قلت إنه إرهاق. رددت كلمة "إرهاق"، عدة مرات، خائفا، لأن الطيف الشاحب الذي ظننت أنه تَشَكّل من انعكاس أضواء السيارات المتقابلة، كان يشبه طيف جدتي، وعندما نمت في تلك الليلة حلمت بها تطير في الفضاء، بجلباب منزلي أبيض. كان الجو عاصفا. الهواء يزوم، ويصفق النوافذ. شعرت ببرودة ثقيلة، ثم هطل المطر غزيرا. سمعت نقرا على زجاج النوافذ. انقبض قلبي وقمت من فراشي. فتحت باب غرفة الجلوس. كان النقر صاخبا. اقتربت من النافذة. كانت بلورات الثلج تتراكم على السياج، ولما دققت النظر رأيت شظايا زجاج أزرق.

عادل عصمت

سبتمبر ٢٠٠٨ – يوليو ٢٠٠٩

t.me/qurssan

عادل عصمت
كاتب مصرى

أعماله المنشورة:

- هاجس موت. القاهرة: دار شرقيات، 1995.
- الرجل العاري. القاهرة: دار شرقيات، 1998.
- حياة مستقرة. القاهرة: دار شرقيات، 2004.

t.me/qurssan